نصفي من الشرق

One Half from the East

نادية هاشمي

Nadia Hashimi

ترجمة: إيمان حرزالله

2023

kalemat

نصفي من الشرق



نصفي من الشرق

One Half from the East

نادية هاشمي

Nadia Hashimi

ترجمة: إيمان حرز الله

دار كلمات للنشر والتوزيع

بريد إلكتروني:

Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www. kalemat.com

ردمك: 978-9921-768-42-8

إلى كيروس

الذي يتنفس سحرًا في حياتنا كل يوم

«من أين أنتِ؟» سألتها

ابتسمت بسخرية وقالت:

نصف من الشرق

ونصف من الغرب

نصف من ماء وتراب

ونصف من قلب وروح

نصف على الشاطئ

ونصف مكنون في لؤلؤة

من قصيدة أنت سكران

للشاعر الفارسي جلال الدين الرومي

الفصل الأول

اخلدي إلى النوم، عبيدة، وفي الصباح ستتسين كل شيء.

تُجدي نصيحة أمي تمامًا في أغلب المشكلات: كشجار مع أختي، أو درجة سيئة حصلت عليها، أو مزق في ثوبي المفضل. لكن منذ ستة أشهر، حدث شيء سيئ جدًّا لم تُجدِ حكمتها في إخراجي منه. ما زلت أتذكره، رغم كل محاولاتي المضنية كي أنساه، لأن ذكرى ذاك اليوم الفظيع تعيش في بيتي، ويدعونني ابنته.

أحاول التركيز على وجه أبي الرقيق أو يديه الكاملتين، لكنّ عينيّ تشردان دائمًا إلى أسفله حيث كانت ساقه، فتعود الذكرى الرهيبة إليّ كلها دفعة واحدة.

كان ذاك اليوم الفظيع في بداية الربيع، حين اصطحبني أبي لزيارة الطبيب. كان أبواي قلقين لأنني ظللت أسعل لأسبوعين كاملين وكان حلقي ملتهبًا بشدة. نظر الطبيب إلى حلقي ووضع سماعته على صدري. وحين انتهى، أعطى أبي وصفة طبية بمضادات حيوية. وفي طريق عودتنا إلى البيت، قرر أبي التوقف عند الصيدلية لشراء الدواء.

كنت مجهدة من السير. كنا صباحًا وكان على أبي أن يذهب إلى العمل في الظهيرة. وجد كرسيًا بلاستيكيًا خارج محل ملابس، وأخبرني أن أنتظره هناك. راقبته يعبر الشارع ويدخل الصيدلية. حين خرج، كان في يده كيس ورقي صغير. رفعه في الهواء ولوح

لـي بابتسـامة. كان الـدواء لـي وكان السـبب الوحيـد لوجودنـا فـي السـوق ذاك اليـوم. أحـاول ألا أفكـر فـي ذلـك كثيـرًا.

بعـد ذلـك بثانيـة واحـدة، توقفـت سـيارة بيضـاء أمـام الصيدليـة وحجبتْـه عـن رؤيتـي. انتظـرتُ أن يعـاود الظهـور.

بعـد ذلـك، يتشـوش كل شـيء تمامًـا. أذكـر أننـي سـمعت أعلـى صـوت سـمعته فـي حياتـي. أذكـر الدخـان والصـراخ والنـاس يركضـون. أذكـر الأبـواق والنيـران وصـوت تهشـم زجـاج. أذكـر أننـي وضعـت يـديّ علـى أذنـيّ وأنـا أسـقط علـى الأرض.

ظللت هكذا لوقت طويل ـــــــ في انتظار أن تسكت الأصوات.

ثـم رفعـت بصـري لأبحـث عـن أبـي، لكننـي لـم أجـد مكانـه سـوى السـيارة التـي فقـدت مقدمتهـا ويداخلهـا كـرة لهـب كبيـرة.

أنـا متأكـدة أننـي بكيـت. لا أعـرف إن كنـت قـد صرخـت أم لا، لكـن حلقـي اشـتدت آلامـه فـي اليـوم التالـي، ولذلـك ففـي الغالـب أنـي صرخـت.

كان الجميـع يفـرون بعيـدًا عـن السـيارة البيضـاء. الجميـع مـا عـداي.

ركضـتُ نحـو الدخـان مباشـرة، مـا عرفـت الآن أنهـا فكـرة سيئة، لكننـي حينهـا لـم أكـن أفكـر بشـكل سـليم. كان هنـاك أشـخاص علـى الأرض. نظـرت إلـى وجوههـم فقـط. تجاهلـت كل شـيء آخـر.

أمسـكتُ أبـي مـن أسـفل ذراعيـه وحاولـت جـره بعيـدًا عـن السـيارة، لكنـه كان ثقيـلًا جـدًّا. سـاعدني رجـلان ـــــــ واحـد مـن كل جانـب. وأخـذا يفعـلان شـيئًا فـي سـاق أبـي. كنـتُ أنتظـر رؤيـة عينيـه تنفتحـان

ولم أنتبه كثيرًا لأي شيء ما عدا وجهه. أردته أن يحدثني فحسب.

لم أدرك سوى ونحن في المستشفى أن الرجلين قد استخدما سترتيهما للف ساق أبي التي طار نصفها في الانفجار. تحولت سترتاهما البنيتان إلى لون غامق وابتلتا بطريقة جعلت معدتي تخفق.

كان ذلك أسوأ ما رأيته في حياتي، ويسعدني أنني لا أتذكر كثيرًا عنه.

لبث أبي في المستشفى لأسابيع. لم نزره كثيرًا لأن أمي قالت إن المستشفى ليس مكانًا للأطفال.

عاد إلى البيت بعقب ملفوف في شاش أبيض، بُتِر نصف ساقه. لم يعد يمكنه التحرك وصار في حاجة إلى المساعدة في كل شيء. كنا نسكن الطابق الثالث من بناية؛ ما جعل من المستحيل عليه مغادرة الشقة ما إن دخلها، إذ لا مِصعد في البناية. صار غاضبًا ومرهَقًا طوال الوقت، ربما لأنه يتألم بشدة. كان في أسوأ حالاته حين يزول مفعول مسكنات الألم أو حين تصلح له أمي ضمادته. كانت أمي تعتني بالجرح كل يومين. تزيل القشور عن اللحم النيء الفج وتعيد لفه برفق ما أمكنها. كان النظر إلى الجرح مريعًا. رأيته مرات قليلة، فصرتُ بعدها أختلق أي عذر لأترك الغرفة كلما أزالت أشرطة الشاش.

في النهاية تحول طرف ساقه إلى جلد معقود ولم يعد أبي غاضبًا بشدة كما كان. بل تحول بدلًا من ذلك إلى شبح. لا أقصد أنه مات، لكنه قد يكون في غرفة وبالكاد يلاحظ الآخرون وجوده. إن تحدث يَخرج صوته همسًا خفيفًا. مكث أغلب الوقت في غرفة

نومه هو وأمي. حين تحسن قليلًا، صار يخرج من الغرفة مرة كل عدة أيام، لكنه يتجنب كل المحادثات بقوله إن ساقه تؤلمه. منحه ذلك عذرًا جيدًا ليظل وحده وينام، وكان هذا كل ما يريده. أظن أنه، هو أيضًا، كان يحاول أن ينسى.

لم يستطع العودة إلى عمله ضابطَ شرطة. أفتقدُ ابتسامته، وإمساكه بيدي ونحن نسير في السوق. لم أدرك كم كنت فخورة به حتى فقد زيه الرسمي.

هذا الخريف، تغير الكثير جدًّا مع ألوان أوراق الشجر. كان علينا أن نجمع أمتعتنا وننتقل إلى القرية لنكون بالقرب من إخوة أبي ليمكنهم مساعدتنا في محنتنا. كذلك لم يكن السكن في شقة في الطابق الثالث فكرة جيدة لرجل بساق واحدة.

انتقلنا من كابول إلى قرية وسط اللا شيء، حيث نعيش الآن، في وادٍ أجدب. تحولت معظم أوراق الشجر الحمراء والبرتقالية والذهبية إلى اللون البني تحت أقدام سكان القرية. نشأ أبي هنا لكنه انتقل إلى كابول، حيث تعيش أسرة أمي، وهو شاب.

كانت الحياة في كابول أفضل كثيرًا. كان لشقتنا شرفة، أحببتها حقًّا لأنني كنت أرى منها كل ما يحدث في الشارع أو في الشرفات أسفلنا. كنت أحب الاستناد إلى السور ومراقبة السائقين يُهبِطون زجاج نوافذهم ليصيحوا في بعضهم، دون أن تفصل بين سياراتهم سوى بوصات قليلة. كانت مدرستي في كابول مبنى جميلًا حقًّا. تأثر بشدة في أثناء الحرب لكنهم أعادوا بناء جزء كبير منه. كان لدينا سبورات سوداء وطاولات وملعب بأرجوحات.

القرية بعيدة عن كابول ومختلفة تمامًا. ليس فيها أشخاص كثيرون مثل كابول، حتى السيارات لا تقترب منها. الأسر أقرب إلى بعضها من بعض، ولا توجد مبانٍ سكنية. نعيش في دار صغيرة بالقرب من دور أعمامي. لدينا فناء في بيتنا الريفي، لكنه يخلو من أي شيء مثير، إلا لمن يحب مشاهدة الملابس وهي تجف على الحبل. يعتني عمي الأكبر بإخوته الأصغر إلى جانب زوجته وأطفاله هو نفسه. هكذا تسير الأمور. الأخ الأكبر في العائلة هو المسؤول عن رعاية الجميع. كأب بديل.

لكن أسرتي ليس فيها ابن، ما يعني أننا ليس لدينا أب بديل.

في بيتنا الريفي، مثلما كان في شقتنا في كابول، غرفة «جميع الأغراض»، أي غرفة المعيشة بشكل أساسي إلى جانب أشياء أخرى. كان طلاء غرفة جميع الأغراض في كابول أصفرَ، لكنها في بيتنا الجديد يبدو أنها لم تُطلَ أساسًا. نقلنا كل ما كان في غرفة جميع الأغراض القديمة إلى غرفة جميع الأغراض الجديدة.

هنا في القرية، لدينا جهاز تلفاز وحيد مثبّت على الحائط بمشغل أقراص مدمجة، نشاهد عليه أفلامًا مقرصنة اشتريناها من بائع متجول في كابول. المشكلة الوحيدة أننا لا يمكننا فعل هذا كثيرًا بسبب انقطاع الكهرباء بشكل متكرر. على الأرضية الترابية سجادات عنابية قليلة مغزولة بأنماط هندسية دقيقة. بطول جدران الغرفة مراتب مسطحة طويلة للجلوس عليها بوسائد كبيرة تستند إلى الجدران. تحب أمي الاستناد بظهرها إلى هذه الوسائد وهي تخيط. حين يحين وقت العشاء، نفرش مفرشًا من

البلاستيك على الأرض ونتناول الطعام. في العطلات الأسبوعية، أيام الجمعة والسبت، نستقبل الضيوف هنا (أي نقدم لهم الشاي والفاكهة المجففة). حين يشتد البرد نستخدم موقدًا منخفضًا بفحم مشتعل في قاعدته. نغطي الدخان ببطانية كاروهات أزرق في رمادي كي يمكننا الجلوس حول دفء الموقد. كنا نضع صحون الجوز بالقرب منه ونتسلى بتناولها. في الظهيرة، نفرش كراستنا القديمة من كابول ونراجع فروضنا المنزلية القديمة. كنت أنا وأخواتي نقرأ ونحن جالسات جنبًا إلى جنب، تساعد إحدانا الأخرى حين تتعثر في كلمة. حين تكون أمي في مزاج جيد، يمكننا إقناعها بلعب الورق معنا. كنا نلعب لعبة اسمها «ورقة خمسة»، أو اللعبة المفضلة لدي، «لعبة اللص». على الخاسر فيها أن يفعل شيئًا ما غير محبب، غسيل الصحون في أغلب الأحيان.

توجد غرفتان أخريان ـــــ إحداهما غرفة نوم والديّ والأخرى غرفة نومنا أنا وأخواتي. ننام جميعًا على مراتب رفيعة مفروشة على الأرض. في الصباح، نطوي بطانياتنا ونضعها على المراتب. توجد غرفة صغيرة أخرى في مؤخرة البيت، حيث تطبخ أمي الطعام، لتطير رائحة البصل المشوح في الهواء الطلق.

بيت رقيق الحال جدًا، ليس به أي أسمنت أو حديد مثل شقتنا في كابول، لكن أمي تظل تؤكد أن الحال كان من الممكن أن تغدو أسوأ بكثير. ظني أنها تقول ذلك فقط لنكف عن الكلام عن كيف كان حالنا أفضل بكثير.

تكافح أمي كثيرًا. أعرف أنها ليست سعيدة بالعيش في القرية، بعيدًا عن عائلتها وأصدقائها. وأنها تفتقد بيتنا في كابول،

وصالون التجميل الذي كانت تذهب إليه (حتى وإن كان مرة كل عام)، والأريكة الجديدة التي كنا اشتريناها لتونا. أظن أنها تفتقد حال أبي التي كان عليها فيما مضى أيضًا. صار إضحاكها صعبًا جدًّا الآن، حتى حين أكون مضحكة حقًّا.

أعرف أيضًا أنها ليست سعيدة تمامًا لقربها من عائلة أبي إلى هذا الحد. تأتي عماتي ويتحدثن معها، لكنها إما تبتسم لهن باقتضاب وأدب، وإما يبدو أنها تحاول ألا تصرف عينيها عنهن. يسكن الجميع بالقرب منا، على مسافة دقائق قليلة من السير من دار إلى أخرى. ولا يبدو أن بإمكاننا التظاهر بأننا لسنا في البيت. نحن دائمًا في البيت لأنه لا يوجد مكان آخر نذهب إليه.

أستطيع ملاحظة كل هذا الآن لأنني في العاشرة من عمري ولم أعد طفلة صغيرة. علمني حادث ساق أبي عن والديّ الكثير. أدركت أنهما ليسا قويين دائمًا، وليسا على صواب دائمًا.

ولأنني في العاشرة وحادة الملاحظة، لاحظتُ نظرة أمي الغريبة لي مؤخرًا ـــــ كأنها تريد إخباري بشيء ما سيئ. لكنني أعرف أنها ستفعل ما تفعله الأمهات وأتظاهر أنه في الحقيقة شيء ما جيد.

الفصل الثاني

أسمع طرقًا على البوابة الخارجية التي تفصل فناءنا عن الشارع. أفتح لشقيق أبي وزوجته. هذه ثالث زيارة لهما خلال هذا الأسبوع. لا أكره عمي. إنه كبير العائلة وراعيها. طويل وبطنه بارز ووجهه مستدير. يبتسم حين يراني وأخواتي لكنه لا يتحدث معنا كثيرًا. على الجانب الآخر، لا أحب زوجته حقًّا، خالة عزيزة، لكنها عمتي، لذلك يجب أن أكون مهذبة. إنها من النساء اللاتي يبدأن كلامهن بعبارة *دعيني أخبرك بما يجب أن تعرفيه*. هذا طبعها.

وتحب الثرثرة أيضًا. انتقلنا إلى القرية منذ نحو ثلاثة أسابيع، في بداية الخريف. كنت أنا وأخواتي نتطلع إلى الذهاب إلى المدرسة، حتى وإن كنا في نهاية العام الدراسي تقريبًا، الذي يبدأ في الربيع وينتهي بحلول أشهر الشتاء الثلاثة.

خلال الأسبوع الأول في بيتنا الجديد، كانت خالة عزيزة تأتي إلينا كل يوم، حتى تأكدتُ أنها أخبرت أمي بكل ما يجب أن تعرفه عن كل فرد من أفراد عائلتنا الكبيرة.

«أين أبيكِ؟» يسأل عمي.

«في غرفة النوم» أجيبه. الإجابة ذاتها طوال الأسبوع. يدخل عمي إلى البيت، يلقي تحية سريعة على أمي، وينعطف يمينًا. تجذبني خالة عزيزة نحوها وتمسك بوجهي بين يديها.

«كيف حالك يا عزيزتي؟ أأنتِ بخير؟»

«أنا بخير، شكرًا». يغيظني سؤالها. أنا أصغر مَن في الأسرة وليس لدي أي نميمة لمشاركتها معها. تظل ممسكة بوجهي فأحاول قول شيء لإبعاد يديها. «كيف... كيف حالك؟»

«أعيش، على ما أظن». يفلح الأمر. تترك وجهي وتهز رأسها. أنظر حولي بحثًا عن واحدة من أخواتي. أريد مهربًا من هذه المحادثة الغريبة، لكن لا أحد غيري في الفناء ــــ نحن الاثنتان فقط.

«أمي في الداخل. تفضلي بالدخول»، أقول بصوت مهذب ما أمكنني.

«سأدخل، سأدخل». لكنها لا تتحرك. بل تضع يديها على كتفي، أنا في مأزق الآن.

«عبيدة، أنت بنت ذكية جدًّا»، تقول. «ظني أن بوسعك فعل الكثير جدًّا لأسرتك».

ليس لدي أدنى فكرة عن ماذا تتحدث.

«أوه، شكرًا...»

تميل إليّ. تقترب بوجهها بحيث يمكنني عدّ رموشها إن شئت.

«يمكنك مساعدة أبيكِ»، تهمس. «يمكنك جعله فخورًا».

أبتسم مرتبكة وأحرك كتفي بعيدًا عن قبضتيها. لا أطيق صبرًا حتى تسجلنا أمي في المدرسة، لئلا أكون في البيت في أثناء زيارة خالة عزيزة. وعدتنا أمي أننا سنذهب إلى المدرسة قريبًا. تكره أن يفوتنا يوم دراسي واحد وأن نتأخر في دراستنا.

«حسنًا، خالتي، لكنني عليّ الذهاب... مينا في انتظاري»، أقوم فجأة وأركض إلى البيت. أمر في طريقي راكضة بأمي.

«عبيدة، أين تذهبين؟» تناديني وهي تنهض عن وسادة أرضية.

«جاءت خالة عزيزة»، أخبرها دون أن أتوقف.

أركض إلى غرفتي أنا وأخواتي: نيلا ومينا وعالية. نيلا في السادسة عشرة، ومينا في الثالثة عشرة وعالية في الثانية عشرة. كلهن أكبر مني، لذلك قضيت حياتي إما في مطاردتهن وإما في الفرار منهن. هكذا الحال دائمًا مع أصغر من في البيت.

تركع نيلا على ركبتيها، وتربت بيديها على السجادة. ألقي بنفسي على مرتبتي وأمسك بدبي الباندا المحشوّ.

«ماذا تفعلين يا مينا؟»

«فقدتُ قرطي»، تتمتم.

«مجددًا؟»

لديها ذلك القرط الذهبي الصغير منذ كانت رضيعة. أترك دُبي المحشو وأزحف إلى السجادة لمساعدتها في البحث. للقرط طريقته في التخفي في رسومات السجادة.

«الخالة عزيزة هنا».

«نعم، سمعت صوتها».

«إنها تتصرف بغرابة»، أقول لمينا بهدوء.

«ابحثي هناك. لقد بحثت هنا بالفعل». أزحف لمسافة قدمين أخريين. تركتني أرتدي قرطها مرات قليلة، فأغرمت باهتزاز حلقتيه في شحمتي أذني.

لذلك أرحب بمساعدتها في البحث.

«مينا، أسمعتِ ما قلته؟ إنها تقول أشياء غريبة».

«مثل ماذا؟»

«مثل أن عليّ أن أجعل أبي فخورًا».

«هذا ليس شيئًا غريبًا يا عبيدة». تقفز على قدميها فجأة. «وجدته!»

أراقبها وهي ترتديه في أذنها مجددًا.

«مينا...»

تنظر إليّ بخبث وتقول: «تعالي، لنذهب لنسمع ماذا تقول خالة عزيزة».

تمسك بيدي في الطُرقة القصيرة. نسير على أطراف أصابعنا ونمر بغرفة نوم أبوي. يجلس عمي بظهره للباب، يتحدث مع أبي بصوت خفيض. لا تلاحظاننا ونحن نمر بهما. نتوقف خارج غرفة المعيشة مباشرة. تضع مينا إصبعها على شفتيها، تذكرني بأن أظل صامتة. لا تخشى خالة عزيزة أن يسمعها أحد. فنحن نسمع كل كلمة من كلامها.

«نحن جميعا نرى حاله. لن يتحدث، ولا حتى مع أخيه. لن ينهض من الفراش. إنه بالكاد يأكل. كيف سيتعافى إن لم تفعلي شيئًا؟»

«أظن أنه في حاجة إلى بعض الوقت فحسب...»

«لقد مضى وقت طويل يا عزيزتي. إن كنت تهتمين بصحته، فعليك فعل الصواب».

«لا يمكنني فعل هذا بعبيدة. هذا ليس صوابًا. لا أريد أن أغيرها. إنها بنت... رائعة. تحب فساتينها وترقص مع أخواتها. لا أريد أن أحرمها من كل هذا».

تتوتـر كتفـاي حيـن أسـمع اسـمي. تنظـر مينـا إلـيّ وحاجباهـا مرفوعـان.

«ستتعلم أن تحب أشياء جديدة. وسيمكنها العودة إلى الأشياء التي تحبها بعد سنوات قليلة. إنه الحل الوحيد. تغيير بسيط ولن يكلفك أكثر من بناطيل قليلة».

«إنـه يحـب بناتـه، ظـل دائمًـا يحبهـن. مـع ذلـك أذكـر كيـف كان يتحـدث عـن رغبتـه فـي ابـن».

«هـذا مـا أعنيـه تحديـدًا! تعرفيـن الفـارق الـذي سـيحدثه هـذا لـه. لقـد رأيـت زوجـي يتحـدث عـن أبنائنـا الثلاثـة، أليـس كذلـك؟ أوه، يشـع وجهـه حيـن يبـدأ فـي هـذا. الابـن سـيفعل لزوجـك مـا لا يسـتطيعه أي طبيـب».

«أتظنيـن هـذا حقًـا؟ ولـن يكون صعبًـا عليهـا؟ أقصـد، إنهـا بنـت. لا يمكننـي أن أجعلهـا تسـتيقظ غـدًا كصبـي».

«الأمـر أسـهل كثيـرًا ممـا تظنيـن. وسـتحبه عبيـدة. حيـن كنـت صغيـرة، كانـت جارتنـا باشـابوش. كانـت فـي مثـل سـني، واعتدنـا أن نلعـب معًـا حتـى حولتهـا أمهـا إلـى صبـي. حينهـا راحـت تركـض مـع الفتيـة ونسـيتني تمامًـا. كانـت أسـعد فتـاة فـي الشـارع. أعـدك بهـذا. افعلـي هـذا الآن، قبـل أن تبـدأ الفتيـات المدرسـة. سـيكون أسـهل علـى الجميـع».

اتسعت عيناي. هل تقترح ما أظن أنها تقترحه؟

«وإلى متى سنبقيها هكذا؟» تسأل أمي بحيرة.

«الأمـر بسـيط جـدًا يـا عزيزتـي، حولـي عبيـدة إلـى صبـي. فبكونهـا ابنًـا، سـتجلب حسـن الحـظ إلـى بيتكـم. سـترين زوجـك

مبتهجًا. ثم خططي لإنجاب طفل آخر. وجود باشابوش في البيت سيبث الطاقة الذكورية في أسرتك. وسيكون المولود التالي صبيًّا. وحين تحظين بصبي حقيقي، شاهدي ما سيحدث. سيعود زوجك إلى الحياة. لقد رأيت هذا في أسر كثيرة حولنا. إنه ليس سحرًا ـــــ بل هكذا تسير الأمور فحسب. حينها سيمكن لعبيدة أن تعود بنتًا. ويفوز الجميع».

أسمع تنهيدة أمي.

«كيف سأقنعها؟ كيف سأقنع أخواتها؟»

«لا تجعليها مجرد صبي، بل أعز صبي في الوجود. أريحيها من مهامها، لا تجعليها تفعل شيئًا مما تفعله الفتيات عادةً. أخبريها أنها صبي مع كل لقمة تُطعمينها، وبكل كلمة تقولينها لها، ومع كل شيء تسمحين لها به في معاركها الصبيانية».

تسكت أمي. لا بد أنها تفكر في كل هذا.

«ويوجد شيء ما آخر عليكِ التفكير فيه»، تقول خالتي محذرة. «يجب أن تعرفي أن الإخوة لا يمكنهم دعم أسرة بكاملها إلى الأبد. للفتى أن يعمل ويكسب مالًا. الفتى حَسَن الحظ. يجلب فتيانًا آخرين إلى الأسرة. الفتيات لا يمكنهن فعل شيء من هذا. لستِ في كابول الآن يا عزيزتي. هذه البلدة يحكمها أمير الحرب البشع ذاك عبد الخالق، وإن لم تلقي بنفسك عند قدميه، سيكون من الصعب عليك العيش. حان الوقت لتفكري بجدية فيما يمكنك فعله لأسرتك. أنتِ لا تريدين رؤية بناتك جائعات، أليس كذلك؟»

«بالطبع لا»، تهمس أمي بنبرة كسيرة.

تمسك مينا يدي بيديها وتعصرها. فترة صمت. أسمع خالتي تصب لنفسها كوب شاي.

«اجعلي عبيدة ابنك، ودعيه يصلح كل شيء في أسرتك».

الفصل الثالث

«سيمكنك فعل كل ما لا يمكن لفتاة أخرى فعله».

لفتت انتباهي بهذه الجملة.

«أنت محظوظة لتأتيكِ هذه الفرصة. الفتيات يتصارعن ليحظين بها».

هذا ما تخبرني به أمي. ظلت تقضم شفتها طوال الأسابيع الثلاثة الماضية، تفكر في اقتراح خالتي بأن تجعلني فتى. يبدو أنها استيقظت هذا الصباح وقد قر عزمها. تعرف أنني متوترة وألاحظ أنها كذلك أيضًا. لا أعرف كيف سيتعامل الناس معي. لست متأكدة كيف سأعاملهم أنا حتى.

«هذا لن يدوم إلى الأبد».

ربما هذه هي المشكلة.

تُمسك أمي بمِقصها، اعتادت استخدامه لقص الخيط أو الورق أو أعواد النعناع ـــــ لم تستخدمه في شيء مهم كهذا من قبل. تبدو مترددة.

وكذلك أنا.

ظللتُ فتاة لعشرة أعوام، هذه مدة طويلة جدًا. أحب كوني فتاة. أحب أفعال الفتيات. تخبرني أمي أنني رقصت قبل أن أسير. كنت أحبو إلى طاولة، أستند إليها لأقف، وأتمايل من جانب إلى آخر على إيقاع الموسيقى المنبعثة من مذياع أبي. أحب حين تبدأ الأغنية ببطء ثم تدخل دقات الطبلة، نقر الأصابع على جلد

حيوان مشدود جيدًا، فتنطلق الأغنية بجموح. سريعة ومثيرة، ولا يمكنني سوى التقافز معها.

حين كنت في الرابعة، حفظت رقصات عدة من بعض الأفلام الهندية. كنت أرتدي أفضل تنوراتي وأسرق واحدة من أوشحة أمي من تسريحتها. كانت التنورة المفضلة لدي بلون قرمزي، صغرت على أخواتي كلهن. أمسك بطرفي الوشاح بين أطراف أصابعي المفرودة، أقف على قدم واحدة، أحرك كتفي اليمنى إلى الأمام والخلف، الأمام والخلف، الأمام والخلف.

كانت نيلا ومينا وعاليا يحببن مشاهدة رقصي، لكنهن لا يتوقفن عن الإشارة إلى الخطأ في حركاتي.

«لا تنسي عينيك!» كنّ يوبخنني. «العينان مهمتان جدًا. هما ما تحكيان قصة الأغنية».

سمعتْ مينا نجمة هندية تقول ذلك ذات مرة في لقاء معها. كنت أبقي عينيّ متسعتين، أحرك بؤبؤيهما يمينًا ويسارًا وأبتسم بابتسامة خجلى. تعلمت كيف أميل برأسي بشكل يجعل كل شعري ينسدل جانبًا.

لم أكن أخطئ في حركة واحدة. كنّ سيمسكنها لي بالتأكيد.

تدور يداي معًا في قوس واسع أعلى رأسي. وأسعد حين يصفقن لي.

حين كنت في السادسة وعاليا في الثامنة، قررتْ عاليا أن نمثل معًا الرقصة الثنائية، التي يتغازل فيها رجل وامرأة. تتظاهر البطلة أنها ليست مهتمة، لكن الرجل يلاحقها لأنه يحبها بشدة. كنت ألعب دور الرجل لأن مينا ونيلا ظنتا أنني سألعبه بشكل

أفضل. لم يكن ذلك ممتعًا في البدء. افتقدت الدوران في تنورتي حتى تنتفخ، وتبدو كالمغزل. لكنني فعلتها. الكتفان للخلف، الخصر للأمام، الرأس مائل جانبًا. خطوات عاليا رقيقة ورشيقة كصوت قيثارة؛ وخطواتي ثقيلة وجريئة كقرع الطبل.

كنت أميل وأقترب من أختي بخطوات مشاكسة، أجذب طرف طرحتها كما يفعل البطل تمامًا. بيدي على يدها، أجذبها نحوي، كما في لعبة شد حبل لم تفز فيها امرأة قط. ولكني كنت المنتصر، المحتل، الرجل.

لكن ذلك كان تمثيلًا، وما تتحدث عنه أمي الآن مختلف تمامًا. إنها تتحدث عن تغيير حقيقي، وليس شيئًا ما سيتوقف مع نهاية الأغنية.

«لن يكون عليك ربط شعرك إلى الخلف. أتذكرين الجمعة الماضية، حين أردتِ تسلق شجرة الحور القديمة في الحديقة. وكيف توسلت إليّ لأدعك تركضين مع الصبية في الشارع؟ كم مرة طلبت ركوب دراجة ابن عمك؟ من اليوم سأقول لك نعم على كل هذا. نعم، نعم، نعم».

إنها ماهرة. لو كانت واحدة من هؤلاء الأطفال الذين يبيعون الحلوى الجافة في الشارع، لباعتها كلها للأجانب.

قادتني أمي، وأخواتي خلفنا، إلى الفناء الخلفي لبيتنا ذي الأربع غرف. بيت بسيط بلا شيء على جدرانه سوى دعاء مكتوب بخط اليد وصورة لأسرتنا. بيتنا محاط بفناء؛ ما جعله يبدو فخمًا، ولكنه ليس سوى مساحة مفتوحة. هناك شجرة إجاص في الفناء الأمامي وشجرة أكاسيا جافة في الخلفي، حيث ننشر ملابسنا

على الحبل لتجف. الفناء محاط بجدار طيني يحيط بالبيت كله، فيجعله كصندوق داخل صندوق. يوجد في الجدار بوابة تتفتح على الشارع حيث لا يُرى سوى الجدران لأن جميع البيوت مبنية بالطريقة نفسها. هذا ما يمنحنا جميعًا الخصوصية ويبقى بيتنا بعيدًا عن أنظار الجيران ويبقي بيتهم بعيدًا عن أنظارنا.

«اقعدي على هذا»، تقول وهي تشير إلى صندوق خشبي.

«لماذا لا تفعلين هذا بهن أيضًا؟» أسأل الأسئلة التي لا يسألها أخواتي. لعل هذا طبعي. ظللت أتساءل إن كان كذلك. من الأسهل ملاحظة طباع الآخرين عن ملاحظة طباعي.

«أنتِ في العاشرة من عمرك فقط. وهنّ كبرن على هذا. الولد ليس لديه صدر».

أفكر في هذا. أخواتي أكبر مني سنًا، أجسادهن منحنيات ودوائر. أما جسدي فمختلف. كتفاي وردفاي مسطحان كورقة. نيلا بالتأكيد لديها ثديان، لكن مينا ليس لديها سوى بروزين صغيرين لا يمكن رؤيتهما لأنها ترتدي أحد أثواب نيلا ـــــ ما زالت لم تتمُ فيه بعد. عاليا جميلة جدًا لتتحول إلى فتى. لا أجادل أمي بشأنها حتى.

أنا طينة طرية، وهن فخار جَف.

«لماذا لم تفعلي هذا من قبل إذن؟ كانت نيلا في سني منذ ستة أعوام».

«كنا في كابول. كان أبوك يعمل وكنا ..... كنا في حال مختلفة».

أعرف أن كابول كانت مختلفة. في كابول يرسل الجميع أطفالهم إلى المدرسة. أما في القرية، فيوجد نوعان من الأسر. الأسر

التي ترسل فتياتها إلى المدرسة ـــــــ والنوع الآخر الذي لا يفعل ذلك. تعتقد بعض الأسر أن الفتيات خلقن ليكن زوجات وأمهات فليس عليهن تكبد عناء الكتب أو الكتابة. أشعر بالسوء لهؤلاء الفتيات لأنهن لا يحظين بفرصة فعل كل ما تفعله التلميذات. لا يمكنهن عد شيء سوى أكواب الأرز الذي سينقعنه في ماء ولا يميزن بين حرف الكاف والجيم. توجد أسر أخرى مثلنا، تعتقد أن على البنات أن يتعلمن كتابة أسمائهن، وقراءة الكتب، وجدول الضرب. يعرفون أنهن سيكبرن ويتزوجن، لكن، كما تقول أمي دائما، الفتاة الذكية ستكون أمًّا أذكى.

أتذكر ماذا قالت خالة عزيزة عن أن هذا سيجعل أبي يتحسن. لا تبدو لي كأنها عليمة بكل شيء، لكن إن كان ثمة فرصة لأن تكون محقة، فعليّ فعل هذا. أنا أدين لأبي العزيز بهذا القدر.

«متى سيطول شعري مجددًا؟»

لا تجيبني أمي.

«أمي، أأنتِ متأكدة من أنها فكرة جيدة؟»

«عبيدة، كيف لن أكون متأكدة؟»

تضع يدها في خصرها، لكنها تجيب سؤالي بسؤال، علامة مؤكدة على أنها لا تعرف كيف تجيب. ليتها تقول ذلك فحسب.

يصل شعري لعظمة كتفي فحسب الآن. تسرحه أمي، تحاول تسويته، تستجمع شجاعتها وتستعد لقصّه. تتردد. أتساءل إن كانت قد غيرت رأيها.

أحب شعري الطويل. أحب حين تسرحه لي أمي في ضفيرة ـــــــ ضفيرة واحدة سميكة وحرة. تطير حين أدير رأسي

كذيل حصان. أحب فساتيني. لا أخبر أخواتي بهذا، لكنني أحب أنهن لبسنها قبلي لأنني هكذا أعرف كيف تبدو عليّ حتى قبل أن أرتديها. أنا وعاليا قريبتان في السن بما يكفي لنتشارك بعض ملابسنا. لن يحدث هذا مجددًا. عاليا لا يمكنها ارتداء بنطال.

تقص أمي شعري. المقص بليد وشعري سميك. يناضل بشرف.

«أترين سهولة الأمر؟ عليّ الآن تسوية أطرافه فحسب».

تدبرت أمي أن تقصّره، لكنها لا تعرف كيف تجعله يبدو كشعر فتى. تظل تقص الأطراف حتى لا يعود لدي سوى غطاء رأس خفيف من الشعر. ما زلت أبدو كفتاة. تعود أمي خطوة إلى الخلف لتحكم على عملها. تبدو كأنها ستبكي.

تتقدم مينا وتأخذ المقص من يد أمي.

تك. تك. تك. تتساقط ندف الشعر عند قدمي.

يوجد أشخاص ينظرون إلى الشيء فيعرفون كيف يجعلونه أفضل. هذا هو طبع مينا.

حين تنتهي مينا، أقف وأنظر إلى نفسي في زجاج نافذة مطبخنا. أذناي أكبر كثيرًا مما ظننت. أدير رأسي جانبًا. لا ذيل حصان يتأرجح. لا عقد لتسرحها لي أمي برفق. مشابك شعري البنفسجية -البلاستيكية التي تبدو كأقواس قزح ضئيلة-لن استخدمها مرة أخرى أبدًا. يداي على رأسي، لا تمسك بشيء. ماذا فعلتِ بي؟

«مينا، أدخليها لترتدي قميصًا وبنطالًا. سأنظف أنا هنا».

تمسك أمي بمقشة قصيرة وتكنس شعري من الفناء.

«لست في حاجة إلى مساعدة مينا. يمكنني ارتداء ملابسي بنفسي». تخرج الكلمات من فمي بجرأة أكبر مما أقصد. أتساءل إن كان شيء قد تغير فيّ بالفعل.

أدخل وأجد الكيس البلاستيك الأزرق. بداخله بنطال بأربعة جيوب بلون أزرق سماوي، أربعة جيوب أكثر مما اعتدت، وقميص بأزرار عليه صورة ذئب مخيطة على الكم الأيسر، أسفل كتفي مباشرة. يبدو الذئب شرسًا، فمه مفتوح ليكشف عن نابين حادين. أحاول تقليد زمجرته. أرتدي البنطال فأشعر أنني دخلت عالمًا آخر. تأتي مينا إلى الغرفة وتحدق فيّ من جانبي.

همست قائلة: «يمكنني رؤية جسدك كله».

تغطيني الملابس من رأسي حتى أخمص قدميّ، لكن ليس بفستان واسع. هذه الملابس تحدد جسدي بحيث يمكن لمينا أن تقيس المسافة من كتفي إلى خصري أو من عظمة ترقوتي إلى ركبتي (لكنها لا تفعل). أنظر من أعلى كتفي، أدير عنقي بقدر ما يمكنني. أريد أن أرى مؤخرتي. أن أرى كيف تبدو في بنطال. من الصعب ألا أشعر بالعري. باستثناء أوقات الاستحمام أو حين وُلدت، لم أشعر بهذا العري من قبل.

«لماذا تراقبينني يا مينا؟ لا يجوز للفتيات أن يراقبن الفتيان». لا أقصد قول هذا فعليًا. أحتاج إلى تجربة الكلمات وتجربة الجرأة_____ كما أجرب البنطال.

«أوه، هذا رائع. علينا الآن التعامل مع سلوكك أيضًا. لا تظني أنني سأعاملك بطريقة مختلفة. ستظلين عبيدة بالنسبة إليّ، اليوم وغدًا وكل الأيام القادمة».

أتقدم لأقف أمامها، قريبة بما يكفي لترى الشعيرات الفالتة التي فات على مينا قصها. «ماذا تظنين حقًا؟ هل أبدو كفتى؟ هل سيمكنني حقًا فعل كل الأشياء التي قالتها أمي؟»

ترفع كتفيها. «ولماذا لا؟ تبدين كأحد الفتية الآن».

أمرر يدي على رأسي. لا شيء لتضفيره، أو تسريحه، أو لعقده.

لا أعرف شعوري حيال هذا.

«لكن كيف أتأكد أن بإمكاني فعل كل هذا؟»

تفكر لوهلة، تربت بإصبعها على شفتيها الورديتين. «فكري في الأشياء المسموح بها للفتيان فقط ثم اذهبي وافعليها. إن سار كل شيء على ما يرام، ستتأكدين».

ربما تكون محقة. يتفتق ذهني في ومضة ذكاء عن خطة للتجربة.

رغم أنني ليس لدي أخ، لكنني رأيت كيف يبول الفتيان. رأيت فتى صغيرًا في السوق ذات يوم، يقف على حافة بالوعة. كانت أمه تحاول مواراته عن الأنظار بتنورتها، لكنني أمكنني رؤيته مع ذلك. لم يكن يتجاوز خمس أو ست سنوات، لذلك لم أتحرج من اختلاس النظر من باب الفضول. رأيته يميل بكتفيه إلى الخلف ويدفع بخصره للأمام، فيرسم تيار ماء أصفر قوسًا عاليًا قبل أن يصب في البالوعة.

كان لدي مسدس ماء بلاستيكي ذات مرة. مسدس برتقالي صغير. كنت حين أضغط عليه بشكل سليم أنجح في ضرب أختي بالماء في أذنها، لذلك أظن أن تسديدي سيكون جيد جدًا.

أسير إلى المرحاض الخارجي، كوخ صغير خلف بيتنا.

إن استطعت هذا، سأعرف أن بإمكاني ان أكون فتى.

مرحاضنا الخارجي مثل أي مرحاض خارجي آخر. بمساحة تسع وقوف فرد واحد فقط. في منتصفه فتحة على كلا جانبيها طوبة. اعتدت وضع كل قدم من قدمي على طوبة لأبول في الفتحة أسفلي مباشرة. أمر سهل.

أقف بظهري للباب. ينثال ضوء كافٍ من النافذة الصغيرة في الجدار إلى يميني. أترك بنطالي الجديد ينسدل لأسفل وأدفع بخصري للأمام، كما رأيت الفتى الصغير يفعل. أحاول اختلاس النظر لأرى إن كان هذا سيفلح. يصعب رؤية أي شيء، فأدفع بخصري للأمام أكثر. أرجو ألا أسدد خارج الفتحة. كان تسديدي بمسدس الماء البرتقالي أفضل كثيرًا، لكن هذا مختلف قليلًا.

سأفعلها. إن كنت سأصير باشابوش، فسأكون أفضل باشابوش في الوجود. ستظن أمي أنها أنجبت فتى حقًا.

أبول فيتدفق السائل على فخذي، يبلل بنطالي الجديد ذا الأربعة جيوب، ويسقط في صندلي.

الفصل الرابع

«أريد أن أنتظر عدة أسابيع قبل ذهابك إلى المدرسة. لقد تغير الكثير بالنسبة إليك»، تقول لي أمي. «توجد أشياء مّا عليك التعود عليها بعد أن صرت فتى الآن».

يحمر وجهي. أشعر أنها اكتشفت بطريقة ما تجربة المرحاض الخارجي بالأمس.. وأنها ليست متأكدة مما قد أجريه أيضًا.

لدي أشياء مهمة لأتعود عليها. اسمي هو أهم شيء. (أنا عُبيد الآن ـــــ وداعًا عبيدة). أستيقظ في الصباح وأظن أن شعري ما زال موجودًا، لكنه ليس كذلك. أنظر إلى خزانة الملابس التي أتشاركها مع أخواتي وأرى كومة ملابس صغيرة لا أعرفها. الفساتين ممنوعة، حتى فساتيني المفضلة. يومي الأول كفتى في البيت صعب بشكل خاص مع غياب أخواتي. بدأن الدراسة اليوم، لكن أمي تريد منحي الوقت لأعتاد هويتي الجديدة. نحن في منتصف الخريف، وأعرف أن الشتاء سيحل قريبًا، ومعه العطلة الشتوية لثلاثة أشهر. أتساءل إن كانت ستسمح لي بالذهاب إلى المدرسة قبل هذا.

ناديتها: «أمي؟»

«نعم حبيبي».

«قص شعري وتسميتي عبيد... كيف سيأتي لنا هذا بأخ؟»

«لا أعرف كيف، لكنه يفعل ذلك. هذا ما يقوله الجميع».

الجميع هم شخص واحد فعليًا ـــــ زوجة عمي.

«كنوع ما من السحر؟»

«شـيء مـا كهـذا». تطـوي فسـاتين أخواتـي. كُـم علـى آخـر، ثـم التنـورة، الكومـة النهائيـة كبيـرة ويبـدو أنهـا سـتنهار بجانبهـا.

حـان دوري فـي الصمـت. إن كانـت ملابسـي درب مـن دروب السـحر، ألا ينبغـي أن أشـعر بشـيء مـا؟ دغدغـة فـي أصابـع قدمـي مثـلًا أو همسٌ فـي أذنـي أو شـيء مـا يجعلنـي أشـعر بخفـة للعبـي دور خـاص فـي خطـة أبـويّ؟ أفكـر فـي الأمـر لوهلـة، أحبـس أنفاسـي. لا، لا شـيء.

«يقول الناس إنني لو ألبست فتاتي كفتى سيمنحني الله ابنًا».

«لقـد قلتِ إننـي سيمكنني فعل أشياء لا يمكن للفتيـات الأخريات فعلهـا وإن هـذا سـيكون رائعًـا. لكـن هـذا ليـس لـي بالمـرة».

«إنـه لنـا جميعًـا. نحـن لا نفعل شيئًا لأي فـرد واحـد فحسـب هنـا. نحـن نتعـاون معًـا بكل طريقـة ممكنة».

أريد أن أتعاون حقًّا.

«أتريدينني أن أُحضر لك الملابس من الخارج يا أمي؟»

تومـئ برأسـها وتشـير إلـى سـلة الملابـس فـي ركـن مـن غرفـة المعيشـة قبـل أن تنتبـه.

«انتظر، توقف، لا يا بني. سأحضرها أنا فيما بعد».

«لكنها جفت بالفعل. يمكنني طيها و______»

تهز رأسها.

«عبيد، اترك الملابس واذهب للعب في الفناء فحسب».

أهـز كتفـيّ. مـن الغريـب أن تعـرض أمـي عـن مسـاعدتي في أعمال البيـت، لكننـي أدع الأمـر وأنطلـق إلـى الفنـاء. تركـتُ عاليـا دميتيـن مـن

القماش القديم عند نباتات الفلفل الحار التي زرعها أبي والتي تعتني بها أمي الآن. لم تعد عاليا تلعب بالدميتين، لكنها لم تتخل عنهما. لم ألعب بدمى منذ سنوات أيضًا. إنها ممنوعة الآن بعد أن صرت فتى، ويجب ألا يزعجني هذا، لكنه يزعجني. الدمى بحجم يدي، بفساتين بالية كفساتين عاليا. وجهاهما مرسومان بالحبر الأسود، وأشعر أنهما يحدقان فيّ بعينيهما الواسعتين. فأدير لهما ظهري.

في اليوم الثاني لي كباشابوش، يبدو أنني سأظل وحيدة في البيت أيضًا. ذهبت أخواتي إلى المدرسة وأمي لا تسمح لي بمساعدتها. أبي يريد أن يكون وحده، هذا طبعه الآن. تُركت لأحدد وحدي كيف سأكون فتى.

تأتي الموسيقى من أعلى جدار الفناء. جيراننا يشغلون الراديو بصوت عالٍ. تتدفق نغمات الطبل، والكيبورد، والربابة إلى فنائنا. أنقر بقدمي الأرض مع الإيقاع وأفكر فيما يمكنني فعله غير هذا.

الفتية في سني، حين لا يكونون في المدرسة، يخرجون إلى الشارع. رأيتهم يلعبون الكرة. ماذا سأقول لهم؟ هل سيعرفون أنني الفتاة التي تسكن في شارعهم؟ لا أظن أن بإمكاني الخروج والانضمام إليهم. أقف. ربما يساعدني الوقوف على التفكير.

يمكنني طلب دراجة. الفتيات لا يجوز لهن ركوب الدراجات، لكن الفتى يمكنه ذلك. وأنا فتى. أتساءل إن كان سيمكنني قيادتها بشكل سليم كما يفعل الفتية أم سأسقط بها.

«عبيد!» تصيح أمي.

تعيدني نبرتها الحادة من شرودي. أستدير لأواجهها، تحمل سلة الملابس الجافة وتريحها على خصرها.

«نعم يا أمي؟» تخبرني نظرتها أنني فعلت شيئًا ما. «ما الأمر؟»

«ما الأمر؟ أنا لم أطلب منك الكثير يا عبيد، أريدك فقط ألا تفعل الأشياء التي لا يفعلها الفتيان. أتعرف فتى يرقص هكذا؟»

لم أدرك حتى. أنظر إلى قدميّ ويخطر لي أنني كنت أهز خصري مع إيقاع الأغنية وأنا أعبر الفناء. حين أفكر في الأمر، أتأكد أنني كنت أحرك كتفيّ أيضًا. أحيانًا تجرفني الموسيقى فحسب.

تعدّ أمي إناء من اليخنة مع الأرز الأبيض. نقعد حول المفرش البلاستيك على الأرض في غرفة المعيشة. تطلب نيلا من أبي الانضمام إلينا. نسمعه جميعًا وهو يكرر ما يردده كل يوم.

«غدًا ربما، فتاتي الحبيبة».

تضع أمي الأرز لنا في أطباقنا. ثم تقلّب اليخنة في الإناء بمغرفة معدنية. تصب السائل الثقيل من الدجاج والخضراوات في طبقي أولًا ثم في أطباق أخواتي.

«أمي!» تصيح نيلا معترضة حين تنظر في طبقها. «ليس لدي سوى بطاطس وبصل. ظننتك قلت إن الطعام اليوم دجاج؟»

إنه حدث مهم لأننا لا نتناول الدجاج كثيرًا. أرسل عمي بعض الدجاج إلينا بمناسبة عيد الأضحى، ذكرى تضحية إبراهيم بابنه ليطيع أمر الله. سمعت القصة من قبل وسررت بشدة حين سمعت أن الله لم يتركه يذبح ابنه. الأمر الآن مجرد عطلة نصلي فيها، ونزور الأقارب، ونأكل جيدًا حقًا. وقد ظللنا نتطلع إلى هذه الوجبة طوال النهار.

«نيلا»، تجيبها أمي بصوت خفيض. لم يكن ثمة لحم كثير لطهيه. أبوك ما زال يتعافى وفي حاجة إلى التغذية أكثر منا جميعًا».

تحدق أخواتي كلهن في الطبق أمامي. يضيّقن أعينهن بنظرات اتهامية.

«لكن عبيدة____ أقصد عبيد لديه قطعتان كبيرتان. وحتى فخذ الدجاجة السفلي!»

بالفعل لدي أكثر من نصيبي العادل. لم يتبق شيء في الإناء سوى قطع صغيرة من الخضراوات غير المهمة.

أقول «يمكنني منحكن بعضًا من_____».

«لا، لن تفعل». تُبقي أمي رأسها محنيًّا فتسقط دموعها على قطعة خبز. تهم بقضمها لكنها تتوقف وتقرر تحديد بعض القواعد.

«إن عبيد فتى. يحتاج إلى اللحم ليقوى. لا أريد سماع أي شيء آخر عن هذا».

تُنهي بنبرتها الجدل. نتناول طعامنا في صمت، تمضغ نيلا طعامها بغضب. أعرف أنها ليس لديها سبب لتغضب مني، لكنني متأكدة من أنها كذلك.

تناديني أمي وهي في المطبخ. تمد يدها في جيب ثوبها وتناولني عدة جنيهات. مبلغ كبير لم تعطني مثله من قبل.

«خذ هذا العجين إلى المخبز وعد بالخبز».

يبدو الأمر بسيطًا بما يكفي. ذهبت إلى السوق عدة مرات مع أمي. وكنت أذهب إلى السوق في كابول أيضًا مع أبي، حين كان

لديه ساقان. أسير على مهل، أراقب الناس من حولي لأرى إن كان أحد سيلاحظ أنني أرتدي بنطالًا لأول مرة في حياتي. يبدو أن لا أحد يلاحظ شيئًا.

أسير ببطء وأنا أحمل الصينية المعدنية بخمس كومات من العجين. أعرف أين المخبز. تصطف الدكاكين على طول الطريق المتربة التي تعدّ السوق الرئيسة. المخبز هو الدكان الخامس بين الدكاكين التي ليست سوى غرف صغيرة بجدران طينية، بعضها أكبر من الآخر. أغلبها بأرض ترابية. أحدها مليء بالحبوب والطحين والبهارات والزيت. آخر به قماش وملابس أطفال. ليس لها أبواب، لكن لاثنين منها ستائر تزاح جانبًا ليمكن للبائع مراقبة المارة في الشارع.

المخبز أكثرها ازدحامًا. يمكن تمييزه حتى من بعيد بسقيفة حمراء عند مدخله. مساحة مربعة تسع الخباز ومساعده بالكاد. صواني العجين على الأرض بينهما، بجوار الفرن الكبير المفتوح مباشرة إناء فخاري عميق مدفون في الأرض. يحدق فيّ الخباز بعين واحدة يضيقها.

لا أعرف ماذا أقول.

«أيهما العجين وأيهما الفتى؟» يسأل مساعده وهو يضحك. «يصعب التحديد حين لا يتحدث أي منهما».

أتنحنح. دعاني فتى.

«هل يمكنك خبز هذا لنا؟» أمد ذراعيّ قليلًا، لكنني ما زلت بعيدة عنه تمامًا.

«هل التصقت قدماك بالأرض؟ اقترب بالعجين!»

أتحـرك لأن صوتـه عـالٍ ومفاجـئ. تدفـع ذراعـاي العجيـن فـي وجهـه. يهـز رأسـه ويأخـذ الصينيـة. يقهقـه مسـاعده حيـن تلتقـي أعينهمـا. وجهـي أشـد حـرارة مـن الفـرن. أسـتدير جانبًـا فـلا يمكنهمـا سـوى رؤيـة جانـب مـن وجهـي. لا أسـتطيع مواجهتهمـا، وإدارة ظهـري لهمـا أسـوأ بكثيـر. لسـت معتـادة الوجـود وحـدي مـع رجـال لا أعرفهـم.

يجعلنـي هديـر محـرك أسـتدير علـى عقبـي. تمـر سـيارتان جيـب سـوداوان لهمـا نوافـذ قاتمـة. أحـدق فيهمـا حتـى أشـعر بضربـة علـى كتفـي مـن الخلـف. ألتفـت سـريعًا، لسـت متأكـدة ممـا حـدث تـوًا.

«لا تحـدق»، يقـول مسـاعد الخبـاز.

«لـم أكـن أحـدق»، أجيبـه. لكنـه محـق، مـع ذلـك. سـيارات مثـل السـيارتين اللتيـن مرتـا الآن ليسـت شـائعة فـي كابـول حتـى، حيـث توجـد سـيارات أكثـر بكثيـر. لذلـك لفتتـا نظـري.

«سـتندم علـى ذلـك. إنهمـا سـيارتا عبـد الخالـق، ولا تريـد أن يرونـك تحـدق مشـدوهًا فيهـم».

«عبـد الخالـق ــــــ أليـس هـو أميـر الحـرب؟» أتذكـر خالـة عزيـزة تذكـر اسـمه.

يضحـك الخبـاز.

«حسـنًا، هكـذا يعتبـره حرسـه الخـاص العشـرون»، صوتـه أكثـر جديـة قليـلًا. «ابتعـد عـن طريقـه فحسـب، يـا فتـى. لا شـيء آخـر لتعرفـه».

يفـرد العجيـن ويضعـه فـي الفـرن. بعـد ذلـك بدقائـق قليلـة يخرجـه بمجـداف. أشـعر بعينيهمـا علـيّ. أخبـط الأرض بقدمـيّ وأتسـاءل مـاذا قـد يفعـل فتـى حقيقـي فـي هـذا الموقـف.

«خذ». تحولت الكتل الخمس إلى أرغفة ساخنة، كل منها أطول من ذراعي. أكدسها على الصينية وأناوله النقود. أطلق تنهيدة راحة لنجاح مهمتي.

أعود إلى البيت لأجد أمي في انتظاري عند الباب. تطلق تنهيدة عميقة وتكور وجهي بين يديها.

«أنت الآن مستعد للذهاب إلى المدرسة»، تعلن. لم أعد من السوق بالخبز فحسب، بل بدليل على مقدرتي على التعامل كفتى في العالم الحقيقي.

الفصل الخامس

«عبيد! عبيد!»

تظن أخواتي أنه من المضحك مناداتي باسم فتى. إن أجبتهن، يضحكن، وإن لم أفعل، يرفعن حواجبهن ويهددنني بإخبار أمي.

«كفى سخافة»، أصيح فيهن. معدتي مضطربة. سأذهب إلى المدرسة أخيرًا. بدأت أخواتي منذ أسابيع قليلة ولدي الكثير للحاق به، إذ بدأ العام الدراسي في الربيع وبدأنا نحن في الخريف. راقبتهن يجمعن كراساتهن وأقلامهن ويخرجن من البيت فيما أمكث أنا حتى أعتاد على كوني فتى لئلا أرتبك بشدة وأنا بين زملائي في الفصل، الذين يفكرون بالفعل في عطلة الشتاء التي ستبدأ خلال أسابيع قليلة. ما يعني أن الجميع في فصلي سيحدق فيّ لوقت أطول لأنني جديدة في المدرسة وأبدأ متأخرة حتى عن أخواتي.

«كما تشاء ـــــ عبيد جان!» تقول عاليا بأداء مسرحي كأنها تقف أمام ملك. هذا طبعها.

عند نهاية الطريق الرئيس، تتوقف نيلا وتعانقني. تنطلق في طريق أصغر إلى اليسار لتذهب إلى المدرسة العليا للبنات. الأصغر بكثير من مدرستها في كابول، لكن نيلا سعيدة بالخروج من البيت مع فتيات من سنها.

أصل إلى المدرسة سعيدة ولست سعيدة.

«تبدو مختلفة تمامًا عن مدرستنا في كابول، أليس كذلك؟»

أحيانا تستطيع عاليا قراءة أفكاري.

«تبدو قديمة جدًّا!»

«ليست بهذا القدم، لكنها أصيبت في أثناء الحرب. أخبرني المعلمون أنهم أصلحوها كثيرًا. كانت أسوأ فيما مضى»، تقول مينا وتهز رأسها.

تعدل أختاي وشاحهما، وتتأكدان من ربطهما جيدًا في المنتصف أسفل ذقنيهما.

«كنت أحب مدرستنا في كابول»، أقول. «وكنت سأذهب إلى الصف الثالث الابتدائي في فصل فتيات هناك. الآن نحن هنا وسوف أذهب إلى فصل فتيان. لا أعرف ماذا سأفعل».

«فصل الدراسة هو فصل دراسي في أي مكان ـــــ لذلك علينا أن نذهب إليه. المعلمون هنا صارمون مثل معلمي كابول في مسألة الوقت. سنلتقي هنا في نهاية اليوم. لا تتأخر»، تحذرني مينا. يلين صوتها حين ترى وجهي. «وعبيد... ستكون بخير.. حسنًا؟»

أغمضت عيني سريعا لئلا تسقط دموعي.

يذهب كل منا إلى فصله، لأن الفتيات والفتيان في فصول منفصلة. تذهب أختاي إلى اليسار وأذهب أنا إلى اليمين، حيث أجد فصلي. تقف المعلمة عند الباب. طويلة ونحيلة وتراقبني بتركيز وأنا أحاول المرور دون أن تلاحظني. أبقي رأسي منخفضًا وأتمنى ألا تدقق في أذني الكبيرتين والجسد المختفي داخل البنطال.

تُوقفني بيد على كتفي.

«هذا يومك الأول، أليس كذلك؟»

«نعم، معلمة». أحدق في قدميّ. وجهي ساخن.

«ما اسمك؟»

آخذ نفسًا عميقًا.

«عبيد».

«عبيد»، تكرر وترفع رأسي بإصبعها من أسفل ذقني. «أنت عبيد؟»

أومئ برأسي ببطء. يدخل فتيان آخرون، يمرون بي للجلوس في أماكنهم على السجادة المفروشة على الأرض. يبدو أننا وقفنا هناك قرابة ساعة، هي تحدق في وجهي، وأنا أتجنب النظر إليها في عينيها.

«عبيد»، تقول مرة أخرى.

«نعم».

تطلق تنهيدة كبيرة جدًّا يتحرك صدرها معها. إنها تعرف حقيقتي. تشير إلى الفصل.

«جد مكانًا لتقعد فيه. لقد فاتك الكثير بالفعل. عليك أن تبذل جهدًا كبيرًا للحاق بنا إن أردت نيل درجة جيدة هذا العام».

يوجد نافذتان تطلان على فناء المدرسة. أجد مكانًا في الصف الثالث من التلاميذ واقعد بجوار الحائط.

أُخرج كراسًا وقلمًا وأبقي رأسي مطرقًا كأنني على وشك كتابة شيء ما. يوجد فتية كثيرون حولي، لكنني لا أريد أن أتحدث معهم. سيعرفون حقيقتي على الفور وسيكونون أسخف من أخواتي.

تمـر السـاعات طويلـة. نـدرس الحسـاب، والديـن، والقـراءة. تجعلنـا معلمتـي، سـيما جـان، نـردد آيـات قرآنيـة مـن المصحـف، القـرآن الكريـم، المـادة الأصعـب علـيّ. القـراءة أسـهل قليـلًا. أغلـب ما ندرسـه كنت قد درسـته العـام الماضـي بالفعل فـي كابـول. أتململ فـي جلسـتي كثيـرًا. يلاحـظ الفتـى الجالـس بجـواري. يميـل إلـيّ ويهمـس: «كـفّ عـن الحركـة. سـتجلب لنفسـك المشـكلات».

لم يكن الجلوس بهدوء صعبًا هكذا قط.

كنـت أحـب المدرسـة فـي كابـول. فـي الصيـف، كانـت الفصـول حـارة جـدًا، حتـى كنـا نتنفـس بالـكاد، لكننـي لـم أشـكُ قـط. كانـت لدينـا طـاولات ملسـاء ومقاعـد حقيقيـة. وسـبورات سـوداء بحجـم الحائـط. كان لـدي صديقـات يشـبهنني ومعلمـة تدعونـي باسـمي الحقيقـي.

وكنـا نعـرف أننـا محظوظـات لأننـا نذهـب إلـى المدرسـة. كان بعـض الأطفـال يضطـرون إلـى العمـل بـدلًا مـن الدراسـة. رأيـت أطفـالًا يجمعـون القطـع المعدنيـة مـن مقالـب القمامـة أو يطرقـون بالمطرقـة علـى حديـد أحمـر سـاخن فـي ورشـة حـدادة. بعضهـم يغسـل السـيارات، أو يلمـع الأحذيـة، أو يبيـع أقلامًـا أو حلـوى. كثيـر مـن الأطفـال الذيـن لا يذهبـون إلـى المدرسـة لا يشـعرون بأنهـم أطفـال بالمـرة؛ مـا جعلنـا جميعـا نحـب فصولنـا، رغـم صرامـة معلمينـا أو كثـرة الفـروض المنزليـة.

يُطلـق سـراحنا أخيـرًا وقـت الاسـتراحة فـي الفنـاء المدرسـي، ليـس سـوى مسـاحة كبيـرة مفتوحـة بكـرة قـدم واحـدة فـي حاجـة ماسـة إلـى الهـواء ومضـرب بيسـبول لا بـد أنـه كان هديـة مـن جنـدي أمريكـي لأننـا لا نلعـب بيسـبول فـي أفغانسـتان.

يلعب الفتيان معًا، والفتيات معًا. ظل ذلك يناسبني تمامًا. الأمر ليس لأن الفتية والفتيات يفعلون أشياء مختلفة، بل لأننا نفعل الأشياء بطرائق مختلفة. تركض الفتيات قليلًا في الفناء، إنما دون أن تدفع واحدة منهن الأخرى أو تلكزها من باب المزاح. الفتيان صوتهم أعلى ويركضون كأنهم لا يخشون ما قد يصطدمون به. يلوحون بأذرعهم عاليًا ويمدون أرجلهم إلى الأمام، ليقطعوا أكبر مسافة ممكنة مع كل حركة.

أراقب الفتيات من زاوية عيني. أسمعهن يغنين ويتقافزن على كلمات أغنية عن بذور الرمان، وعن الحجارة في النهر وأخذ العجين إلى الخباز. تتردد الكلمات في رأسي وأمنع نفسي بصعوبة من الغناء معهن. أخواتي لسن في الفناء. ستخرج فصولهن فيما بعد، وأعرف أن مينا وعاليا ستقفان في دوائر الفتيات، ليندمجن بلا عناء.

أرى الفتية يندفعون في اتجاه والفتيات في الاتجاه الآخر. أنا الآن في المكان الغريب بين العالمين.

ألتقط عصاة وأبدأ السير، على أمل ألا يلاحظ أحد الفتى الوحيد ذا البنطال الأزرق. يلاحق ثلاثة فتيان أحدهم الآخر. يمر بي أولهم سريعًا، فتثير قدماه هبات الغبار. أتراجع بسرعة لئلا يوقعني الآخران. يمران سريعًا خلفه.

«هيًّا، أمسكه!»

دون أن يبطئ أحدهما ركضه، يصيحان فيّ للانضمام إليهما.

يتوقف أحدهما. يستدير ويحدق فيّ. يرتعب قلبي. يواري أغلب وجهه بحافة قبعة أمريكية مكتوب عليها حروف -W-I

Z-A-R-D-Sبخيوط حمراء على مقدمتها. ينظر إليّ بتدقيق شديد، كأنني سرقت منه شيئًا.

«هيه، أنت! أين تذهب؟»

أستدير لأسير في اتجاه مختلف لكنه يقترب مني. أسرع خطوي وأقترب من مبنى المدرسة.

«قف!»

أنعطف يسارًا بسرعة وأنطلق في ممر لأختبئ خلف عمود عريض. ألهث وأسمع صوت أنفاسي عاليًا في هدوء المبنى الخالي. أنتظر سماع صوت باب ينفتح، أو وقع خطوات في الممر، سيجدني الفتى.

قد لا يجدني اليوم، لكنه غدًا______ يحذرني صوت فتاة خائفة في رأسي_____ سيجدك.

الفصل السادس

في اليوم التالي، أعصابي على حافة الانهيار. ظللت فتى لأقل من ثلاثة أسابيع وما زلت لم أتعود الأمرَ تمامًا.

«عبيد. عبيد!»

لم أسمع المعلمة. كانت عيناي على النافذة، تحدقان في الفناء، إلى حيث سننطلق خلال دقائق قليلة. لا أعرف تحديدًا ماذا سيحدث اليوم، لكنني متأكدة من أن ذلك الفتى سيبحث عني. من حسن الحظ أنه ليس في فصلي.

«نعم، معلمة صاحب»، أقول مشدوهة. هكذا نخاطب معلمينا، «حضرة المعلمة»، لأنه ليس من اللائق مخاطبتهم بأسمائهم.

«إن لم تنتبه في الفصل فهل ترى أي فائدة من الجلوس هنا؟»

أثبت رأسي، أعرف أن جميع مَن في الفصل يحدقون إليَّ.

«عذرًا معلمة صاحب».

«أيمكنك حل المسألة؟»

لا يمكنني. تضع يديها الاثنتين في خصرها، يمتد فمها إلى الأمام بحدة.

«سيكون عليك إنجاز فروض منزلية إضافية اليوم، وغدًا ستقف أمام الفصل وتجيب الأسئلة التي سأطرحها عليك. أنا متأكدة من أنك ستسمعني من هنا أفضل».

«نعم معلمة». أجيبها وأنا أغمغم.

حين يأتي وقت الاستراحة، تضطرب معدتي. نندفع جميعًا خارج الفصل ويصطف الفتيان للعبة *غورساي*. لعبة صعبة لا تلعبها الفتيات أبدًا ويعشقها الفتية. كثيرًا ما راقبت الفتية في شارعي يلعبونها وأعرف القواعد. تتضمن اللعبة فريقين. لكل فريق قائده، أو الملك، على الفريق حمايته من الخصوم. الهدف هو نقل الملك من أحد جانبي الملعب إلى الجانب الآخر. طوال الطريق، يحاول اللاعبون جميعًا طرح خصومهم أرضًا. ومن يسقط يخرج من اللعبة على الفور.

لو كان الأمر كذلك فحسب، فلم تكن لعبة سيئة. لكن الصعوبة في *غورساي* أن على اللاعبين مد أيديهم اليمنى خلف ظهورهم للإمساك جيدًا بالقدم اليسرى، ما يجعل الساحة مليئة بلاعبين بأذرع واحدة يتقافزون وهم يحاولون حفظ توازنهم، والدفاع عن ملكهم ضد المهاجمين، والوصول به إلى الجانب الآخر. وإن نجح لاعب في جعل لاعب آخر يترك قدمه، يخرج الأخير من اللعبة.

«ما خطبك؟ تعال العب معنا».

يراقبني فتى الأمس ليرى ماذا سأفعل. يرتدي بنطالًا وقميصًا بنيًا والقبعة الأمريكية نفسها. أعرف أنني سألفت الأنظار أكثر لو حاولت الاختباء خلف الصبية الذين يلعبون بالكريات الرخامية، لذلك أومئ برأسي، ببرود ما أمكنني، وأذهب للانضمام إلى المجموعة الأخرى، الأقل عددًا. الفتى ذو القبعة في الفريق الآخر، يبتسم نصف ابتسامة خبيثة.

«هيه، يا فتيااات»، يصيح فتى طويل في فريقي. أنظر حولي بجزع لأكتشف أنه يصيح في الفريق الآخر. «هيهيا فتيات، هل

اخترتن ملككن؟ كلما أسرعنا في البدء هزمناكن أسرع، هيا أسرعن!»

ضحكات.

«هل أنت ماهر؟» يسألني الفتى الواقف بجواري.

أهم برفع كتفيّ لكنني أهز رأسي. لعبة *غورساي* هي أحد شؤون الصبية التي أعرف عنها، لكنني إن جربتها... حسنًا، أتذكر كيف شعرت حين تساقط البول في صندلي.

«لا أعرف»، أغمغم. نقف معًا لنستمع إلى أوامر بصير. الفتى الأطول في الفصل والأكبر سنًا، لذلك فهو القائد. أحدق نحو الأسفل في أحذيتنا، مجموعة متنوعة من الجلد، والمطاط، والبلاستيك. لا يبدو واحد منها جديدًا، وكذلك حذائي، الذي كان من قبل لابن عمي، فاختلطت جميع الأحذية معًا.

«مستعدوووون؟» يصيح فينا صبية الفريق الآخر. ينتشرون في الطرف الآخر من الفناء. يدق قلبي بقوة.

«أمسكوا أقدامكم جيدًا يا أولاد»، يأمرنا بصير. «هيّا إليهم!»

أمسك قدمي بيدي جيدًا، تتوتر كتفي وأنا أمد يدي خلفي. أقفز وأنظر حولي لأرى إن كان أحد ما يلاحظ. يبدون جميعًا ثابتين على أقدامهم، كأن لديهم عصيان سحرية تبقى أجسادهم مستقيمة بدلًا من الأعمدة الفقرية.

«هجووووم!» تتردد صيحات بدء المعركة عالية عبر الملعب وتعلو على صوت الفتيات.

«أمسكوه!»

«انتبه___ إلى يسارك!»

أقفـز إلـى يمينـي، تتأرجـح ذراعـي اليسـرى، أبحـث فـي الهـواء عـن شـيء صلـب لأثبت عليـه نفسـي. بصيـر علـى مقربـة أقـدام قليلـة منـي.

كيف يفعلون هذا؟

إن اسـتطعت البقـاء بعيـدة عـن بصيـر، سـيمكنني الابتعـاد عـن الإثـارة. هـذه خطتـي. أُحكم قبضتـي علـى قدمـي وأغـرس أصابعـي فـي مقدمـة حذائـي.

أتقـدم بقفـزات قليلـة إلـى الأمـام، فـي خـط متعـرج مـن عنـد نقطـة البـدء. إنهـم مقبلـون نحونـا الآن. عشـرة أولاد يقتربـون منـا بقفـزات صغيـرة، تتحـرك أكتافهـم ومرافقهـم وهـم يقتربـون مـن فريقـي. يبـدأ التصـادم ويبـدؤون فـي محاولـة إسـقاط بعضهـم بعضًـا.

«أمسكوه!»

أراقـب بصيـر يتقـدم خطـوات قليلـة إلـى الأمـام. سـقط ولـدان مـن الجانـب الآخـر، علـى ظهريهمـا. أراقبهمـا ينهضـان ويسـيران إلـى الحـدود الجانبيـة بوجهيـن متألميـن.

أعـاود الانتبـاه أمامـي، أذكـر نفسـي ألا ألفـت الانتبـاه. حينهـا تقابـل عينـاي عينـي الفتـى ذي القبعـة المكتـوب عليهـا WIZARDS. يحـدق فـيّ مباشـرة، كأن لا أحـد غيـري فـي الملعـب.

أقفز نحو زملائي في الفريق، تريكني نظرته.

لكنـه يقبـل نحـوي مباشـرة، متجاهـلًا تشـابك الصبيـة. ينـاور ليصـل إلـيّ مثلمـا أحـاول أن أنـاور لإحاطـة نفسـي بأعضـاء فريقـي. لسـت سـريعة بمـا يكفـي.

«احترس!»

إنه أطول مني ببوصات قليلة، وعيناه ضيقتان. شعره أشعث وغير متساوٍ. يدفعني بكتفه في جانبي بنخرة عالية. أشهق وتترك يدي قدمي قبل حتى أن يلمس جسدي. أسقط على الأرض بيديّ.

«أسقطتك!» يصيح بانتصار.

«أنت كلب!» أصرخ غاضبة ومحبطة ويداي تتألمان من السقوط بهما على الأرض.

يضحك ثم يعاود الانتباه إلى الآخرين من فريقي، الذين عبروا إلى الجانب الآخر دون أن يلحظ أحد منهم سقوطي. يهلل له أصدقاؤه وهو يسقط ولدين آخرين. أشعر بإحباط شديد يمنعني من الحركة. لماذا دفعت بي أمي إلى هذا العالم؟ ليس لدي ما يؤهلني له. كيف لم تدرك هذا؟

من السهل الرقص كالفتيات. إنهم يتحركون يمينًا ويسارًا ويرفعون أذرعهم كأنهم يحملون جائزة. هكذا رقصهم. لكن كل ما يفعلونه غير الرقص صعبًا لأنه مختلف تمامًا عما تفعله الفتيات. محاولة التصرف كفتى مثل تعلم لغة جديدة تمامًا، وأنا أناضل حقًا لإيجاد الكلمات. إن بكيت، لن يكون لديّ ذرة أمل واحدة.

أخرج من حالة الرثاء للذات فجأة. يصيح الفتية. سقط فريقي كله، عن بكرة أبيه، حتى بصير. عصف الفتى ذو القبعة، الذي أسقطني، بالفريق كله كإعصار انتقامي. سينظر نحوي، يجب أن أنهض.

لا يمكنني النهوض بالسرعة الكافية. أنا كتلة متشابكة من المفاصل السائبة والعضلات الرخوة. كيف ظننت أن بإمكاني هذا؟ أراقب الفتى. يبتسم بانتصار. يلف أصحابه أذرعهم حول عنقه بمرح.

يخلع قبعته. ينظر من أعلى كتفه ويحدق فيّ مباشرة. عيناه حادتان، وشعره يعكس أشعة الشمس. يزم شفتيه لمنظري البائس.

ما زلت على الأرض.

الفصل السابع

أنـزع الصفحـة الأخيـرة مـن كراسـتي بحـرص وأكتـب الحـروف W-I-Z-A-R-D-S.

أحـاول نطـق الكلمـة. ويـز-آر__دز. مـاذا تعنـي؟ آخـذ الورقـة إلـى أختـي نيـلا وهـي تكنـس غرفـة المعيشـة.

«نيلا، أيمكنك قراءة هذه الكلمة؟»

تبدو ممتنة لأي شيء يجعلها تترك المقشة عند الحائط.

«أي كلمـة؟» تأخـذ الورقـة مـن يـدي وتحـدق فيهـا بتركيـز لوقـت طويـل. يخيـل إلـيّ أنهـا سـتثقب الورقـة بعينيهـا. «أيـن رأيتهـا؟»

تعـرف نيـلا قـدرًا أكبـر مـن الإنجليزيـة ممـا أعرفـه لأنهـا ذهبـت إلـى المدرسـة منـذ وقـت أطـول وتلقـت دروسًـا إنجليزيـة أكثـر. إنهـا علـى وشـك إنهـاء المدرسـة العليـا. لكننـي أعـرف مـن نظرتهـا أنهـا لا تعـرف شـيئًا.

«لو كنت لا تعرفين، لا تحاولي اختراع شيء». أحذرها.

«لـم أكـن سـأخترع»، تقـول، لكنهـا تطـرف بعينيهـا بسـرعة، فأعـرف أنهـا لا تقـول الصـدق. «لا أتذكـر معناهـا. يمكننـي أن أسـأل معلمـة الإنجليزيـة. أيـن رأيـت تلـك الكلمـة؟»

«ليـس فـي أي مـكان»، أقـول وأنـا أشـيح بوجهـي. قـد لا تطـرف عينـاي، لكننـي متأكـدة مـن أن لـديّ حركـة أخـرى قـد تكشـفني. «أقصـد، لا أتذكـر. كنـت فقـط أتسـاءل عـن معناهـا».

«أنت تتصرف بغرابة»، تقول لي أختي.

«ليس مثلك»، أجيبها. فتتأفف وتدير لي ظهرها. أبتعد عنها بسرعة، أحاول الابتعاد عمًّا قالته. أنا أتصرف بغرابة، لكنني لا أريد إخبارها بأنني خائفة من فتى في المدرسة. لا أريدها أن تعرف أنني، بعد سنوات من إطلاق الشرر من فمي في البيت ولعب دور البطلة نجمة الأفلام، لست مرتاحة في حياتي الجديدة بالبنطال، وأخاف من فتى يطاردني في المدرسة. لا أريد أن أبدو مثيرة للشفقة إلى هذا الحد، لذلك أحتفظ بسري لنفسي.

أجبر نفسي على التركيز في الفصل. عينا معلمتي عليّ. صرتُ، بسبب شرودي، الفتى الذي على المعلمة مراقبته.

«عبيد!» تصيح.

قف بانتباه. «نعم؟»

«تعال وحل هذه المسألة على السبورة». تمسك بقطعة طباشير. أنهض من جلستي على الأرض وأسير من خلف زملائي. أحدق في السبورة وأنا أقترب منها.

عليها رقم خمسة عشر.

«يوجد في بيتكم خمسة أشخاص، على سبيل المثال. ويوجد في صندوق ثماني عشرة تفاحة». أومئ برأسي، أريدها أن تعرف أنني منتبهة. أشعر بسخونة في عنقي وأنا أقف بظهري للتلاميذ.

«عليك تقسيم التفاحات ليأخذ كل فرد نصيبه بالتساوي. كم تفاحة سيأخذ كل فرد وكم سيتبقى بعد القسمة؟» تفرك أصابعها معًا لتمسح عنها الطباشير.

«تحدث وأنت تحل المسألة. قل للفصل ماذا تفعل».

الإجابة بسيطة. أدرك أنها لا تختبر مهاراتي الحسابية حقًا. بل تختبرني *أنا*.

أعض شفتي وأفكر للحظة. أسمع همهمة ضحك من خلفي.

«إن كان هناك خمسة أشخاص في البيت... إذن... إذن...»

أضغط قطعة الطباشير على السبورة. ترتعش يدي وأنا أحاول رسم خط أسفل الرقم الذي كتبته. يصدر الطباشير صريرًا رفيعًا بسبب ضغطي عليه. ترتفع الأيدي لتغطي الآذان. أنكمش أنا الأخرى.

«كفى أيها التلاميذ!»

أمسح جبيني بظهر يدي. هل يحدقون في قدمي؟ هل يتخيلونني بشعر فتاة ويعرفون أنني فتى مزيف؟

«عبيد، نحن في انتظارك. أوضح للفصل كيف ستحل المسألة».

أُذكّر نفسي أن أتنفس. لا يسعني سوى التفكير في الفصل المليء بأعين تحدق فيّ. أتساءل كم منهم يعرف حقيقتي. لا تعنيني التفاحات. يمكنها تقسيم نفسها.

«سامحيني معلمة».

«على ماذا؟»

أنظر إليها في عينيها مباشرة وأضع قطعة الطباشير في يدها. أسمع همسًا. ترى الدمع في عينيّ فلا تتفوه بشيء. تراقبني وأنا أعود إلى جلستي على الأرض. ينظر إليّ الفتى الجالس بجانبي مذهولًا. لم يسمع أحد عن تلميذ لم يطع المعلمة من قبل. أحاول التماسك.

«ماذا حدث هنا أيها التلاميذ؟» تقول وهي تعقد ذراعيها على صدرها.

تعلو أصوات بالإجابات فورًا. أشعر كأنني عدت إلى الملعب، يدفعني خصوم يتقافزون بقدم واحدة من كل جانب.

«عبيد ليس ماهرًا في الحساب».

«إنه يخاف من الطباشير».

«ربما لم يرَ تفاحًا قط».

ترتفع أيديهم على أفواههم لكتم الضحك.

أرغب في الاختباء داخل ملابسي كالسلحفاة.

تسيطر معلمتي على الأمر. تنقر بمسطرة على الحائط ثلاث مرات وتتنحنح.

«إن العلم بالشيء لا جدوى منه إن لم تستطع مشاركته مع الآخرين. سيبدو كأنك لا تعرف شيئًا على الإطلاق. عبيد يمكنه حل هذه المسألة وحتى مسائل أصعب من تلك، لكنه إن لم يخبرنا بما يعرف، فسيتركنا لنفكر في الأسوأ».

يسود الهدوء. أشعر بكره شديد نحو المعلمة، أعرف أنها نصبت لي فخًا.

يحين وقت الاستراحة، فأشعر لأول مرة بارتياح للخروج من فصلي. على الأقل سأبتعد عمّن يحدقون فيّ بذهول. لكنني فور خروجي من الباب يصطدم بي شيء من الخلف. أتعثر ولا يمكنني حفظ توازني. أسقط أرضًا.

أنظر خلفي وأرى فتى القبعة.

يركض التلاميذ الآخرون مارون بنا. نتواجه بلا مساواة دون أن يلاحظنا أحد.

«انهض»، يقول بفتور. لا يمكنني رؤية عينيه. تُخفيهما حافة قبعته. من هذه المسافة، يمكنني رؤية الخيوط الحمراء للحروف بالية بشدة وتذكرني بشعر مينا المنكوش.

«ماذا تريد مني؟» أنفجر بغضب.

«الآن، يوجد شيء»، يقول بابتسامة خبيثة. يحدق فيّ وأنا أنهض ببطء.

«ما مشكلتك؟ دعني وشأني فحسب». أقول وأنا أمسح يدي في بنطالي.

«ما اسمك؟» يقول غير مبالٍ بغضبي.

«لماذا سأخبرك؟»

«لأنني سألت. هل سألك أحد غيري؟»

لم يسألني أحد آخر عن اسمي حقًا.

«أنت لست مرتاحًا في هذا. هذا واضح جدًا».

«في ماذا؟»

وها هو مجددًا ـــــ ذلك الشعور الغريب بالعري هنا في فناء المدرسة. تتهدل كتفاي إلى الأمام وأتقوقع على نفسي بشكل لا إرادي. تركز عيناي على حصاة وتتغلق شفتاي.

«ها أنت ذا. هكذا عرفت».

«عرفت ماذا؟»

يميل إليّ. يقترب بوجهه مني بشدة لحد أن أرى الأوعية الدموية العنكبوتية في بياض عينيه. إنه أكبر مني بنحو ثلاثة

أعـوام ومخيـف بشـدة. أتراجـع وأديـر لـه كتفـي. إن اسـتطعت رؤيـة كل هـذا فيـه فسيرى هـو أكثـر مـن ذلـك فـيّ. يبتسـم بمكـر وهـو يضـع يديـه فـي خصـره. يقـف موسـعًا مـا بيـن سـاقيه وظهـره مسـتقيم. قـوي وواثـق بنفسـه علـى النقيـض تمامًـا منـي. أكـره نفسـي لضعفـي.

«أنت واحد».

أحبـس نفَسـي. ليتـه يقولهـا فحسـب إن كان يعـرف. ربمـا ليـس متأكـدًا ويريدنـي أن أعتـرف. لـن أمنحـه هـذا النصـر. لكننـي لا أعـرف مـاذا يعـرف، ولا أعـرف مـاذا أفعـل.

«اغـرب عـن وجهـي»، أقـول بحنـق وأبتعـد. هـذا كل مـا يمكننـي اليـوم.

«أنـا أعـرف حقيقتـك»، يصيـح مـن خلفـي. تجعـل كلماتـه شـعيرات قفـاي تنتصـب.

الفصل الثامن

أظل أفكر فيه طوال العطلة الأسبوعية. أخشى العودة إلى المدرسة بشدة لأنني أعرف ماذا ينتظرني هناك. الأمور سيئة داخل الفصل، وخارجه أسوأ حتى. لا يمكنني إخبار أمي بأي شيء. سمعتها منذ أيام قليلة فقط تخبر إحدى جاراتنا أنها ليست متأكدة من أنها فعلت الصواب بتحويلي إلى باشابوش. وفي آخر محاولة لي للتحدث معها عن هذا الأمر ارتبكت بشدة حتى بدا أنها لا تفهم شيئًا.

أخواتي لا يمكنهن مساعدتي. تغيرت الأمور تمامًا في البيت. يتصرف والداي كأنهما لا يعرفان شيئًا عن كوني فتاة. ظلت أمي تضع في طبقي أكبر قطع اللحم، دون أن يتبقى لأخواتي شيء منه أحيانًا. تتذمر عاليا وتكشّر، وتهز نيلا رأسها فحسب. لم أغسل أي صحون ولم أكنس الأرض منذ شهر تقريبًا. قُسِّمت مهامي التي اعتدت القيام بها على أخواتي. لقد أقامت مسألة الباشابوش جدارًا كبيرًا بيننا.

عاليا ومينا في غرفتنا. تضفر مينا شعر عاليا وهما تغنيان.

«مينا، أتريدين مشاهدة فيلم؟» توجد كهرباء اليوم، وقد مضى وقت طويل جدًا منذ أن شغلنا جهاز الديفيدي العزيز. حين كنا في كابول اعتدت وأخواتي استعارة أقراص الديفيدي من أي شخص ومشاهدة أي شيء نعثر عليه. «أتذكرين يا مينا الفيلم الذي تتنكر فيه الأب كامرأة عجوز ليمكنه البقاء مع أطفاله».

«كان فيلمًا سخيفًا»، تقول وهي تنظر إليّ بريبة. «إنه أمر غير معقول. أي رجل يرتدي ملابس امرأة؟»

معها حق لكنني لا أقر لها بهذا. حتى وإن لم تكن القصة قابلة للتصديق، فقد أضحكتني، خاصة حين كان يطهو طعامًا وطالت نار الموقد صدره المزيف.

«حسنًا، ماذا سنفعل إذًا؟ أنجزنا جميعًا فروضنا المنزلية. أتريدين الجلوس في الفناء؟ ربما نلعب الجاك؟»

«عبيد»، تقولها مينا وفمها يتشكل فيه دائرة كاملة لتنطق اسمي. أداء مسرحي، ليس من طبعها في العادة لكن أظن أن الأمور تتغير. «إن أردت اللعب في الخارج، اخرج والعب. *أنتَ* يمكنك هذا. نحن علينا المكوث في البيت لمساعدة أمي والانتباه في حال أراد أبونا شيئًا، وقد يكون علينا مساعدة نيلا أيضًا. وبما أنك لست مضطرًا إلى فعل أيٍّ من هذا، اخرج والعب كما تشاء».

«مينا، ما خطبك؟ أسألك إن كنت تريدين فعل شيء ما فقط». إنها متحفزة، كأنها غاضبة من شيء ما لكنها لا تبوح به، لذلك يخرج منها بألوان وأشكال مختلفة. لا أظن أنها غاضبة مني حقًّا لخروجي إلى الفناء. تنظر عاليا إلى مينا. تلاحظ غضبها أيضًا.

«أنا أريد أن أخرج_______»

«حسنًا، أنتِ لا يمكنك!» تنفجر فيها مينا. تُسكتها كأنها غطاء وضع على الإناء فجأة. تتهدل كتفا عاليا، ينعقد حاجباها معًا بإحباط. كلما كنت الأصغر سنًّا في البيت ازداد الأمر سوءًا عليك. يوجد كثيرون ممن يخبرونك بما عليك فعله وما لا يمكنك فعله. لا أعرف كم مرة سمعت جدتي تقول *ليرحم الله أصغر من في البيت*.

«مينا، دعيها لشأنها!»

تحدجني مينا بنظرة غاضبة.

«ابتعد أنت عن الأمر. نحن أختان نتحدث. اذهب وقم بشؤونك... شؤونك الصبيانية!» إنها حانقة كأن الأمر كان اختياري.

تظل عاليا صامتة. ليس من السهل أن تكون الأوسط أيضًا.

«*اتركن هذا اللحم لعبيد. أتركن عبيد يخرج ويلعب. اطوين ملابس عبيد*»، تقول مقلدة أمي. «كأننا لا نعرف أن عبيد ليس عبيدًا حقًّا!»

«هذا ليس ذنبي، مينا»، أهمس. شعور فظيع أن تظن أن أختك تكرهك. «لم أرغب في هذا. لست حتى ماهرة فيه».

أستدير لأخرج من الغرفة. أسمع مينا تناديني، لكنني لا أعود حتى وإن بدت آسفة على ما قالته.

في الصباح التالي، أعود إلى الفصل على استعداد للمهانة مجددًا، لكن معلمتي لا تناديني. لديها ضحية جديدة، فتى لا يخاف بقدر ما أخاف لكنه أسوأ مني في الحساب. أن تتظاهر بأنك تعرف ثم تجيب إجابة خاطئة تمامًا لهو أسوأ بكثير، على ما أظن. يبدو أن معلمتي ترى هذا هي الأخرى.

أتمنى أن يحدث هذا مع فتى القبعة. أتمنى أن أجد طريقة للكم تلك النظرة المتعجرفة في وجهه. إنه يعرف حقيقتي، لكنه لا يخبر الآخرين. ربما أخبر الفتيان بهمسات لم أسمعها. ربما سيحدقون فيّ جميعًا حين أخرج إلى الفناء اليوم. لن يستغرق الأمر وقتًا لنشر الخبر.

أخرج إلى الفناء مع الآخرين. أفكر فيما قد أقوله لو سألني أحد إن كنت فتاة. إنه هنا. يراني. لا، لا يراني. بل ينظر إليّ بشماتة. كأنني مسألة جبر وقد حدد بالفعل قيمة (س) المجهول. أريد أن أصرخ.

«هيه يا فتى!» يصيح. يقبل نحوي. تتكور يداي، ليس في قبضتين، بل لشيئين يمكنني تخبئة عينيّ بهما إن بكيت. في ظل تصرفات أخواتي، بدأت أشعر بعزلة حقيقية.

«لماذا تلتفت؟» يسألني.

«ألم تنادني؟».

«أتجيب حين يناديك أحد بفتى؟ أأنت فتى؟» نبرته ساخرة، مستفزة، وليس لدي إجابة نموذجية لسؤاله.

«ماذا تريد؟ لماذا تجعلني مشكلتك؟»

يضحك ضحكة كبيرة بحيث أرى أسنانه ولسانه الوردي. أكره كوني أقصر منه. حتى وإن لم أسقط على الأرض، سأظل دائمًا أتطلع بعيني إلى هذا الفتى. أخفض بصري إلى مستوى ركبتيه.

«لست أنا من أعتبرك مشكلتي»، يقول بغطرسة.

«لست كذلك؟ مَن إذًا؟»

«أنت. أنت من لديك مشكلة مع نفسك».

«غبي. ماذا تعرف؟» تخرج كلماتي ضئيلة بسخف شديد، كأنني أرمي بحصى على جبل.

«أيها الفتى الصغير»، يهمس. «لا أظن أن أي جزء منك فتى».

يدفعني فجأة. أتراجع خطوة إلى الخلف. فينخر باستهانة.

«أرأيت كيف تسقط بسهولة؟ أنت تقف كأنك لست متأكدًا من وجودك هنا. هل يجب أن تكون هنا، عبيد؟»

«أنت... أنت تعرف اسمي؟»

«نعم.. أعرف اسمك».

«كيف تعرف اسمي؟» أرتبك. إنه أكبر مني. ليس بما يمنعنا من لعب *الغورساي* معًا، بل بما يكفي لئلا يعنيه اسمي أو أي شيء آخر بشأني. باستثناء كوني شخصًا يمكنه طرحه أرضًا في فناء المدرسة، كان يجب أن أكون لا مرئية بالنسبة إليه. لكنني لست كذلك.

«ولماذا تحدق في قدمي؟ انظر إليّ». بلمسة سريعة لذقني يرفع نظري إلى أعلى. تلتقي أعيننا.

عيناه جريئتان لامعتان، عيناي تطرفان مذعورتان.

«أنت تجلس هنا فحسب وتدع الأمور تحدث لك. إن كنا نلعب كرة قدم بدلًا من غورساي، ستبدو أشبه بالكرة وليس لاعبًا».

يحمرّ وجهي. أشعر بالعري ــــــ كأنه يرى ما بداخلي من حيث يقف.

عليّ تركه. لكنني لا أفعل لأن كل ما يقوله حقيقي، ومن الصعب ترك شخص يعرفني جيدًا إلى هذا الحد. يرغب جزء مني في معرفة ماذا سيقول فيما يلي، بقدر ما قد يؤذيني هذا.

«أليس لديك شيء لتقوله؟ أين صوتك؟» يسألني باستنكار. «إن لم يكن لديك شيء لتقوله فعليك العودة إلى بيتك واللعب بدمى أخواتك».

هل يتحدث عن دمى عاليا؟

«ماذا تعرف عن أخواتي؟» يدور رأسي، تتلاحق أنفاسي. أنطق الكلمات بجهد كبير. «لماذا تحسب أنك تعرفني؟»

يمسك بي من كتفيّ بيديه الاثنتين. أصابعه قوية جدًّا، أشعر بها تضغط الأربطة التي تصل ذراعيّ بجسدي. أتوقع أن يطرحني أرضا ثم يسير مبتعدًا، لكنه لا يفعل هذا، بل يقترب بوجهه من أذني ويهمس بالحقيقة التي ستكون سرًّا بيني وبينه.

«أنا أعرفك لأنني *مثلك*».

الفصل التاسع

أنا أعرفك لأنني مثلك.

لم أتوقع أن يقول هذا.

تراقبني أمي. حين بدأت الدراسة كنت أجر قدمي جرًا للخروج من البيت. كنت أريد الذهاب إلى المدرسة لكنني لم أكن متأكدة مما سيقوله لي الناس. تغير كل ذلك بعد أن همس ذلك الفتى بتلك الجملة الثقيلة في أذني.

يجب أن أراه مجددًا.

تحاول أمي فهم حماستي الجديدة. لم ترني متلهفة هكذا للذهاب إلى المدرسة منذ أن كنا في كابول، حين كنت فتاة، وكانت أسرتنا مختلفة.

أغادر أنا وأخواتي البيت معًا. الجو بارد وتسعدني سترة الفتيان التي أرتديها على قميصي. عند نهاية الطريق الرئيس، تنعطف نيلا يسارًا نحو مدرستها. حين كنا في كابول، كان والداي يتحدثان عن ذهابها إلى الجامعة، لكننا في القرية، حيث لا شيء بعد المدرسة العليا، ونيلا تعرف هذا، نأخذ ما تيسّر لنا. ماء، كهرباء، تعليم ـــــ دون ضمان شيء.

أدخل إلى فصلي برأس مطرق. يبدو أن معلمتي قد فقدت اهتمامها بي. لست سوى تلميذ آخر بالنسبة إليها الآن. الفتى الجالس بجواري يشحذ قلمه.

طلب منا أن نكتب جدول الضرب. لا أكره الحساب، لذلك يمر الصباح بسرعة.

يحين وقت الاستراحة فأكون أول من يخرج من الفصل. الشمس ساطعة والأرض تشع بالحرارة. أبحث عنه، لكنه ليس في الفناء. أمسح الفناء بعيني من اليسار إلى اليمين، أنظر في القامات التي من طوله، عن القبعة، وأذكر نفسي أنه قد يكون بلا قبعة اليوم. حين تقع عيناي عليه، أشعر بقلبي يتوقف.

إنه... أأشير إليه بهو أم بهي؟ هو، أقرر، لأن هذا ما يريد أن يكونه. يسير مع أصدقائه الثلاثة. رأيتهم معًا يلعبون كرة القدم، يتصفحون المجلات، ويركل أحدهم الآخر كأنهم مُدربون كونغ فو. شاهدت فيلمًا او اثنين بطولة بروس لي، الممثل المضاد للجاذبية، وتمنيت أن أخبرهم أنهم مجرد هواة. ركلاتهم معوجة وأذرعهم سمينة. أراقب فتى القبعة، يمكنه الإمساك بقدم صديقه وهي تحلق نحوه. يضحك ويدفع بها جانبًا ليدور صديقه. أكاد أبتسم.

ليس سيئًا... بالنسبة إلى فتاة.

أراقب جسده. مع أنه أكبر مني بثلاث سنوات، لكن جسده ليس كذلك. لا أرى كتلًا على صدره. لا أعرف عن ماذا أبحث أيضًا. ما كنت سأعرف أبدًا لو لم يكن قد أخبرني بنفسه. يتحرك كما يتحرك الآخرون. أتساءل كيف درب جسده على هذا. أشعر بالضعف والخيبة وأنا أراقبه.

أقترب أكثر من صاحبيه. هل هما فتاتان أيضًا؟ أحدق فيهما، أحاول تحليل زاوية فكيهما، شكل أيديهما. أدقق النظر

في شفتيهما وحاجبيهما، على أمل أن يفصل الشعر بين الحقيقة والتنكر. في النهاية، لا أصبل إلى شيء. إن كان فتى القبعة يخدعني، فسيتحول الجميع إلى علامات استفهام.

«هيه! هيه، أنت! فيمَ تحدق؟»

أنتبه فأدرك أن أحدهم لاحظني. أمرر أصابعي على لحاء شجرة توت تلقي بظلها على الفناء وأنظر إلى الأرض.

«لا تتظاهر بأنك لم تسمعني!»

يلتفت فتى القبعة ويدرك أنني المحدق الذي أمسك به صاحبه. أرفع يديّ وكتفيّ بحركة اعتذار مرتبكة. لا أعرف إن كان سيفهمها، لكن وجه فتى القبعة يتحول إلى الجدية. يقول لصاحبيه شيئًا ما ويسير نحوي.

«ماذا تفعل؟» يقول حين يقترب مني بما يكفي لأسمعه.

«كنت آمل أن.... أردت أن أتحدث معك قليلًا لأنك... أكنت تعني ما قلته؟»

يرفع حاجبيه. ينتظرني أن أقولها.

آخذ نفسًا عميقًا وأطلق سؤالي، بصوت خفيض وحرص رغم عدم وجود أحد بالقرب منا.

«أأنت باشابوش؟»

«أنا كذلك بالطبع»، يقول بابتسامة غريبة. صوته أكثر نعومة عن آخر مرة تحدثنا فيها. يختفي ثقل ما في الهواء بيننا. لا يسعني سوى التحديق في شفتيه ووجهه. لوهلة فقط، يمكنني رؤيته كفتاة. أتخيله بشعر طويل فيتضح وجهه تمامًا. «لكنني لست حديث العهد بالأمر مثلك. الأفضل لك أن تعتاد الأمر سريعًا وإلا ستلفت إليك الأنظار ـــــــ ولن تكون أنظارًا جيدة».

أعض شفتي. أعرف أنه محق. لقد نظر إليّ عدة تلاميذ بفضول. آخرون لم يلاحظوني البتة. وقليلون حدقوا إليّ مباشرة، كأنهم اكتشفوا حيوانًا بدائيًا.

«ماذا عليّ أن أفعل؟»

«أنت باشابوش. انس كل شيء آخر وكن فتى».

«لكنني ظللت فتاة طوال حياتي. كيف أنسى كل شيء؟»

«الأمر ليس صعبًا كما تظن». يعبث بقبعته، يعدل حافتها ليقي عينيه من الشمس. «أظن أن بوسعي مساعدتك».

«ما اسمك؟» أسأله.

«رحيم». يقول بابتسامة مرحة.

«رحيم»، أكرر. «ومن قبل؟»

«رحيمة»، يقول فتتلاشى ابتسامته. أم ابتسامتها؟ بماذا أدعو هذا الشخص؟ ظني أنه لن يحبني كثيرًا إن أشرت إليه كفتاة، حتى وإن كان في ذهني فحسب. أقرر بحسم أن رحيم فتى وليس أي شيء آخر.

يقول رحيم «لكن هذا الاسم يبدو لي الآن كأنه اسم شخص آخر. أظن أنني لن ألتفت لو سمعت أحدًا في الشارع ينادي رحيمة».

أيمكن لأحد أن يترك اسمه خلفه؟ أيمكن ألا أكون عبيدة أبدًا؟ لا أتخيل هذا. ربما لذلك لا أستطيع التصرف مثل رحيم.

نجلس على إطار سيارة قديم في ركن من الفناء. يرتدي رحيم بنطال جينز متآكل عند الركبتين وتيشيرت بولو. أرتدي أنا بنطالي ذا الجيوب الأربعة الخاص بفتى أصغر مني، لذلك يبيّن كاحليّ.

«أكان الأمر صعبًا عليك؟»

لا يسألني ماذا أعني. ولا يُخجله السؤال. يعرف لماذا أسأل. أمر جيد أن أتحدث مع أحد يعرفني.

أنا أعرفك لأنني مثلك.

«في البدء كنت فتاة في ملابس فتى. كان ذلك صعبًا حقًّا. لم أعرف كيف أتصرف. أردت أن أعقد ساقيّ وأعدّل وشاحي».

يضحك للذكرى. أضحك أنا أيضًا، أحاول تصور كيف قد يبدو رحيم بوشاح أعلى قبعته. الأمر سخيف مثل الممثل الأمريكي الذي يرتدي ملابس جدته.

«لكنني أدركت أنني لن يمكنني التصرف كفتاة في ملابس فتى، بل يجب أن أكون فتى في ملابسه. هذا هو أفضل شيء. أن تستيقظ وترتدي هذا البنطال القبيح القصير جدًّا وتركض إلى المدرسة. أن تقفز وتتحدث بصوت عالٍ حين تشاء، وتتناول كل ما يمكنك تناوله. أن تخبر الناس بما تفكر فيه، وتحرز الأهداف، وأن تجعل أباك ينظر إليك كأنك الرئيس المقبل لأفغانستان».

«كيف أفعل هذا؟»

يحدق فيّ رحيم. يعض شفته. أندم على سؤالي. أشعر أنه سيدفعني كعادته.

«قف»، يقول. يتحول صوته من الرقة إلى الخشونة فورًا.

قف. أتساءل إن كانت خطوط الإطار قد انطبعت على ظهري.

«أتتذكر ما قلته لك من قبل؟ انظر كيف تقف، طريقتك في خفض بصرك. أن تكون فتى ليس بأن ترتدي بنطالًا فحسب، بل برأسك، في كتفيك». يلكزني بمرفقه ليؤكد كلامه.

أغمغم قائلاً: «كف عن هذا».

«ماذا؟» يميل برأسه ويمسك شحمة أذني. أرفع يدي لأمسك بيده لكنني لا أمسك بشيء سوى الهواء.

«قلت لك كف عن هذا!» أقول بانزعاج. لديه طريقة في إفساد المحادثات بحماقاته. لا أريد أن أكون حقيبة لكماته.

يدفعني في جبهتي براحة يده فأتراجع للخلف.

هذه المرة أركله بقدمي. أسقط على الأرض لكنني أنجح في لمس ذقنه بطرف قدمي وأنا أسقط. يطلق عواءً ويصفق بيديه بانتصار.

«هذا أفضل»، يقول. «قف منتصب القامة. ارفع ذقنك كأنك تتحداني أن أضربها. وسع ما بين ساقيك. لديك أعضاء فتى، لا تنسَ هذا. أبق راحتيك مفتوحتين ودع ذراعيك تتأرجحان وأنت تسير. إن سمعت شيئًا مِن خلفك، التفت وابحث عنه. حين تلتفت، وحين تركض، اضرب الأرض بقدمك كلها وليس بأطراف أصابعك فحسب. أتحمل بيضًا في جيوبك؟»

بيض؟

«لا؟ لا تسير مثلما تسير إذن. اركض كأنك لا تخشى انكسار شيء!»

يشير إلى قدميّ، يلكزني في ذقني ومرفقي. أستمع إلى كلماته وأشعر بجسدي يرتخي. صار تنفسي أسهل. لماذا؟

«وماذا أيضًا؟»

«أنت فتى، ولست باشابوش، عبيد. إن فهمت هذا، فلا يوجد شيء آخر. أنت تعرف ضعفك الآن، أليس كذلك؟ الفتيان لا ينبغي

أن يكونوا ضعفاء. الفتيان من الصخر والمعدن. نحن نأكل اللحم ونكشف عن أنيابنا».

«والفتيات؟»

«الفتيات من أوراق الزهور والأكياس الورقية. يأكلن التوت ويرشفن الشاي بحرص كأن شيئًا ما قد يقفز فجأة من الماء الساخن ويعضهن».

أشعر بتمزق ــــ نصفي غاضب من وصفه للفتيات ونصفي الآخر فخور لأنني لست فتاة الآن.

«لا أظن هذا»، أقول. لا أريد أن أجادله، لكنني لم أفكر في نفسي ككيس ورقي من قبل. «أأنت سعيد بكونك باشابوش؟»

«أهذا سؤال يُسأل؟ لماذا قد أريد أن أكون أي شيء آخر؟» ينظر إليّ كأن أذنيّ من البطاطس. «أنت حديث العهد بهذا؛ ما يعني أنك تعرف جيدًا كيف هو الأمر أن تكون فتاة. أكان لذلك أي فائدة؟»

لا أعرف كيف أجيب. يبدأ السير في الفناء. أتبعه، أحاول ضبط خطواتي مع خطواته. القدم اليسرى، اليمنى، اليسرى... ساقاه أطول من ساقيّ فيسبقني بخطوة دائمًا. يواصل، «بالنسبة إليّ أنا لم أحب الأمر قط. لكنني لم يكن لدي الخيار، وإلا كنت طلبت تغييري منذ سنوات. أتعرف ماذا كنت أفعل حين كنت فتاة؟ كنت أساعد في المطبخ، وفي الغسيل، وتقديم الشاي للضيوف، وكنت أخاف من الصبية في الشارع...»

كنت أفعل كل هذا منذ أسابيع قليلة مضت أيضًا. هل كرهت هذا؟ ربما. ربما كان كل هذا فظيعًا لكنني لم أفكر في الأفضل.

ربما ظل كل شيء مشوشًا لي حتى هذه اللحظة، وحتى هذه المحادثة تحديدًا.

«الأمر أنني أشعر بغرابة شديدة الآن»، أعترف له.

«سيصير كل شيء أسهل. سيحدث تلقائيًّا. بالنسبة إليّ، حدث حين تلقيت تلك القبعة». يشير إلى قبعته. «في اليوم الذي تلقيت فيه تلك القبعة، أسقطت أربعة فتيان في الغورساي وظللت واقفًا على قدمي طوال المباراة. لم أسقط ولو مرة واحدة وأنا بهذه القبعة. كأنها تميمة حظي السعيد. ابق قريبًا وسوف ينالك بعض منها أيضًا».

ينظر إلى صاحبيه، اللذين عادا إلى الفصل. أشعر أنني محظوظة لعثوري على هذا الصديق الجديد المثير. لو كنا فتاتين ما كنا سنلتقي أبدًا. تقابلنا لأننا فتيان من نوع خاص فقط. ربما نالني بعض من قبعته بالفعل. حين يستدير إليّ، أرى الفتاة في عينيه. يأخذ يدي ويعصرها بين أصابعه النحيلة الطويلة.

«لم يساعدني أحد حين تغيرت. لكنني سأساعدك. سنكون كأخوين!» يضحك. أضحك أنا أيضًا ــــــ ليس لأنه ظريف، بل لأنني سعيدة.

يبدو دائمًا بنظرة ما على وجهه، والآن وقد صار بإمكاني النظر إليه مباشرة وليس بجانب عيني، يمكنني تمييز تلك النظرة. يبدو رحيم كأن بإمكانه فعل أي شيء.

الفصل العاشر

ظللت باشابوش لأربعة أسابيع وخمسة أيام، قبل أن أشعر باستقرار في فصلي أخيرًا. أحيانًا نلعب الغورساي في أثناء الاستراحة. نلعب أنا ورحيم في الملعب نفسه لكن ليس في فريق واحد أبدًا، لأن البقاء معًا قد يلفت الأنظار إلى القاسم المشترك بيننا. تحسنت قليلًا عن مباراتي الأولى، ما يفيدني لأن صداقتي برحيم لا تعني له أي شيء ما إن تنطلق صيحة الهجوم. يمكنني قطع نصف المسافة تقريبًا إلى جانب الفريق الآخر، لكنني ما زلت ممن يسقطون أولًا. كل مرة.

تحول خوفي من رحيم إلى صداقة قريبة. قدمني لصاحبيه أيضًا، أشرف وعبد الله، اللذين أحبّاني، حتى مع كوني أصغر منهما.

نتقابل بعد المدرسة عدة أيام في الأسبوع. ترمقني أخواتي بنظراتهن من أعلى أكتافهن وهن في طريقهن إلى البيت. أنا مسموح لي بالبقاء في الخارج بعض الوقت. الآن وقد صار لديّ رحيم لأتحدث معه، صرت أحب هذا الوقت الإضافي، وأستغله. تتسع المسافة بيني وبين أخواتي. ما إن يصرن بعيدًا عن مرمى السمع، يمكننا أنا ورحيم أن نتحدث عن الأشياء التي تخصنا نحن فقط.

«يسقط حرف صغير من اسمي فيتغير عالمي كله. إنه الحرف الأصغر، صوته بالكاد مسموع. رحيم... رحيمة. أترى؟ إن نطقته

بسرعة كافية يمكنك تفويته. من كان يظن أن حرفًا صغيرًا كهذا قد يحدث فارقًا كبيرًا هكذا؟»

يريد أن يعلمني أشياء كثيرة لم يستطع قولها لأحد ليس آخر. أحب سماعها، لأنّ لا أحد آخر سيخبرني بها ـــــ ولا حتى أمي.

«كم ظللت فتى؟» لدي أسئلة كثيرة. أحيانًا أنسى الأسئلة التي فكرت فيها خلال الليل، لكن الأمر لا بأس به لأن لدي دائمًا أسئلة أخرى.

«حدث هذا منذ أن كنت في التاسعة. فلست مختلفًا عنك كثيرًا في الحقيقة».

«أليس لديك إخوة؟»

«لو كان لدي أخوة، لما صرت هكذا الآن»، يقول ببساطة. حين نكون وحدنا يغدو صوته أنعم بكثير منه مع الصبية. «أنا الأخت الوسطى في أسرتي. لدي أختان أكبر مني وأختان أصغر. أحيانًا يمنعنا أبي من الذهاب إلى المدرسة. لا يحب أن يتبعنا الفتية إلى البيت أو أن يضايقونا. يظن أن الناس سيتحدثون عنا».

أعرف ماذا يقصد بهذا. لفت الأنظار ليس شيئًا جيدًا في قريتنا. هكذا الأمر في كابول أيضًا. قد يتسبب لفت أنظار الغرباء ولو قليلًا في جرّ الفتاة إلى بيتها بسرعة شديدة إلى حد أنهم قد ينسوا قدميها في الخارج. الأمر تقريبًا كأن جميع الفتيات يولدن وهن يعرفن أن هذا ما قد يحدث، لذلك نتحرك ونحن بالخارج كالأشباح ـــــ نبقي صوتنا خفيضًا، وخطواتنا وئيدة، وأعيننا في الأرض.

«لذلك فكرت خالتي في جعلي باشابوش. الآن آتي إلى المدرسة دون أن ينظر إليّ أحد. ولا يتبعني أحد. حتى إنني أعمل بعد المدرسة».

ينتفخ صدره وهو يقول هذا. «كانت هذه فكرة زوجة عمي أيضًا»، أقول. «أي عمل تعمل؟»

«أتعرف محل الأجهزة الإلكترونية القريب من المخبز؟ أساعدهم هناك. وأتعلم الكثير».

يبدو هذا كبيرًا جدًّا بالنسبة إليّ. أتساءل إن كان عمله أصعب مما يدّعي. أعرف أن بعض الصبية الذين يعملون في محلات يعانون كثيرًا، خاصة مَن لا يذهبون إلى المدرسة. يسعدني أننا لسنا فقراء جدا إلى حد أن أضطر إلى حمل طوب أو أكياس أرز كبيرة. إصلاح الراديوهات قد يكون مثيرًا، لكنني أشك في أن يحالفني الحظ بما يكفي لأجد شيء ما يبدو حرفيا هكذا.

«أتعرف فتيانًا آخرين مثلنا؟» هذا ما أشير به إلى الباشابوش الآن ـــــ فتيان مثلنا.

«الكثير»، يقول وعيناه تتسعان للتأكيد. تعرفهم من بريق أعين الفتيات الذي لا تخطئه العين، لكن أظن أن أغلب الناس لا يدققون.

«الكثير؟ مثل كم؟ في مدرستنا؟» أنظر حولي في الشارع. كيف لم ألاحظ؟

«لا، لا، ليس هنا. بل في مناطق وقرى أخرى».

أتساءل كيف سيكون الأمر لو قابلتهم أو لو ميزت واحدًا منهم كما ميزني رحيم. كان من الصعب قبل أن أعرفه أن أتخيل وجود

باشابوش آخر غيري. لكن علمي بوجود اثنين منا يجعلني أنظر إلى جميع الصبية من حولي وأتساءل إن كنت سأميز واحدًا آخر.

يعدل رحيم قبعته على رأسه، فأتذكر ما لاحظته حين رأيت صاحبي الجديد أول مرة.

«هيه، رحيم، ماذا تعني WIZARD؟»

يلتفت لينظر إليّ. يبدو مرتبكًا. «ماذا قلت؟»

«قبعتك. ظللت أتساءل ماذا تعني WIZARD». كلماتي أبطأ هذه المرة.

ينفجر بضحك يبدو كأنه ينبعث من مكان ما في أعماقه.

يحمر وجهي. أعرف أنني نطقت الكلمة خطأ. أريده أن يكف عن الضحك. أعقد ذراعيّ على صدري وانتظر. حين لا يكف أركله في سمانته.

«آو! لماذا فعلت هذا؟» يتذمر وهو يفرك رجله. لا يضحك الآن. «هيا، عبيد. كان ذلك مضحكًا. لا تكن حساسًا».

«لا تكن أنت سخيفًا».

أحيانًا يكون سخيفًا. أعرف أن ذلك لأنه أكبر مني ولأنه ظل فتى لوقت أطول، لكنه ما زال سخيفا. يشبه حينها خالة عزيزة، صاحبة عبارة *دعني أخبرك بما يجب أن تفعله*.

«إنها WIZARDS»، يقول ببساطة تشبه الاعتذار. «لي ابن عم في أمريكا، هو من أرسل إليّ هذه القبعة. الـWIZARDS فريق كرة سلة هناك».

«أوه».

نواصل سيرنا. الوقت نهاية الظهيرة ورحيم يسير معي إلى البيت ـــــ ما يفعله دائمًا. يقول إنه يحب السير، لكنني أعرف أنه يحرسني أيضًا. أحب أن يكون لي صديق مقرب أكبر سنًّا مني حقًّا. يعتني بي رحيم مثلما تعتني بي أختي الكبرى نيلا، لكنه مختلف أيضًا ـــــ أشبه بأخ أكبر، على ما أظن.

«هل يعني الاسم شيئًا ما؟»

يقول بسرعة: «لا. أقصد، لا أعرف». ليس من عادته ألا تكون لديه إجابة. أفكر في أنه لم يكن له أن يضحك كثيرًا لخطئي في النطق.

حين نصل إلى البوابة المعدنية لبيتنا، نتوقف.

سألته: «أتريد الدخول؟» لأنني أعرف أن هذا ما قد تفعله أمي إن سارت إلى البيت مع صديقة. لا أتخيل ما قد يقلنه أخواتي لرحيم. إنهن يرينه في المدرسة من بعيد، لذلك لن يخمنّ حقيقته أبدًا. لكنني إن أدخلته سيدركن الأمر على الفور، لعلمهن أنني لن أدخل البيت بفتى حقيقي. أتخيل أخواتي بقرون استشعار أعلى رؤوسهن. مشهد مضحك جدًا، سأعض شفتي لأمنع ضحكي. من الصعب شرح الأمر لرحيم، الذي ينظر الآن إلى البوابة. يحاول رؤية ما خلف الجدار الطيني الذي يخفي فناءنا وبيتنا عن الأنظار. يأخذ نفسًا عميقًا.

ثم يقول: «أعتقد أنه من الأفضل أن أعود إلى البيت، أمي تقلق دائمًا حين أتأخر في العودة».

أومئ برأسي. فما عرضت عليه الدخول إلا من باب الأدب في جميع الأحوال.

تمر بنا أم وابنتها تسيران بسرعة، تمسك الفتاة الصغيرة بيد أمها بقوة. تنورتاهما طويلتان، وخماراهما ينسدلان على كتفيهما إلى خصريهما. تجران قدميهما وهما يسيران بسرعة. انقضى النهار تقريبًا وستهدأ الشوارع.

لدي سؤال آخر لرحيم. شيء ما في الغالب ليس عليّ التفكير فيه الآن، لكنني لا أستطيع.

«رحيم، أيمكنني أن أسألك سؤالًا؟ ماذا سيحدث لك؟ متى سيعيدونك كما كنت؟»

يتجهم وجهه بشدة. يخفض جفنيه ويزم شفتيه. يدس يديه في جيبيه فأخجل من التطفل في سؤالي.

«لن يعيدونني أبدًا»، يقول صديقي المقرب بحدة شديدة تجعلني أقلق عليه. «لن أعود فتاة مرة أخرى أبدًا».

نسمع أنينًا.

«ابتعدا عنه!» يصيح رحيم. نسير في طريقنا إلى البيت بعد المدرسة، ننفخ في أيدينا لتدفئتها. بدأ البرد يشتد حقًّا. الشتاء يقترب.

ألتفت لأرى لماذا يصيح رحيم. يطارد فتيان صغيران كلبًا ضالًا. يحاصرانه في زقاق ويلتقط أحدهما حجرًا صغيرًا. الكلب الصغير ملطخ بالطين وله فراء مبقع. ينكمش، يبحث عن مخرج.

«اتركاه وشأنه!» يصيح رحيم مجددًا. يندفع نحو الفتيين. يلتفتا إليه، مدهوشين. أرى وجهيهما ينعقدان بغضب.

«رحيم، انتظر! ماذا تفعل؟»

يتجاهلني. يقف أمام الكلب بالفعل، الذي يتراجع خائفًا منه هو أيضًا. ليس واثقًا في كونه صديق.

«اتركا الكلب لحاله، أيها الأحمقان!» يقول رحيم وهو يرفع قبضتيه. يتقدم أحدهما منه ويدفعه. فيدفعه رحيم في المقابل. أنا مذعورة لكنني أركض نحو صديقي.

«توقف!» أصيح دون أن أعرف ماذا أفعل سوى هذا.

«ما مشكلتكما؟ أهذا الكلب أختكما أم شيء؟» يقول الفتى هازئًا.

فرد رحيم إهانته قائلًا: «كلا، بل هو الابن الذي تتمناه أمك بدلًا منك». أدهشني هذا وأصابني بالتوتر.

بينما ينتهز الكلب فرصته ويركض مبتعدًا، يندفع الفتى نحو رأس رحيم فيميله إلى الخلف فيتعثر الفتى ويسقط أرضًا. يعاود الهجوم على رحيم مجددًا. فيركله رحيم بقدمه، فيمسك الفتى بذقن رحيم بيده، وهو يعوي بألم. ينظر إلينا صاحبه ويندفع نحو رحيم. ودون تفكير أمد قدمي في طريقه فيسقط أرضًا. ينكفئ على وجهه. ينظر رحيم إليّ. ليس عليه قول شيء. أعرف فيما يفكر.

نركض بأقصى سرعة. ساقانا الأنثويتان خفيفتان وسريعتان. يطاردنا الفتيان لمسافة شارع واحد، ثم يتركاننا. حين نتأكد من ذهابهما نستند إلى حائط لالتقاط أنفاسنا.

«لا أصدق أنك فعلت ذلك!» يقول رحيم ضاحكًا.

«وأنا أيضًا لا أصدق»، أعترف.

«بدا ذلك الكلب حزينًا جدًا. لم أرغب في رؤيتهما يقذفانه بحجر. شكرًا لك على مساندتي».

«أنت صديقي يا رحيم. لم أكن لأتركك تتعارك معهما وحدك».

«لقد تعاركت مع فتى وانتصرت عليه عبيد». يقول وهو يمسك يدي بسرور. «أليس هذا رائعًا؟ ألا تشعر بسرور حقًا؟ انتصرنا على فتيين! دعه يحكي لأصحابه عن الخدوش في يديه ووجهه حين تشاجر مع فتيين -بنتين».

هذا أحد أفضل أيامنا حتى الآن كفتيين.

أدخل غرفة المعيشة، ما زلت أشعر بسرور حقيقي. كالعادة، أبي ليس هناك.

«عبيد، جيد. جئت أخيرًا».

«سلام، أمي».

«بنيّ، خذ طبق طعام إلى أبيك من فضلك. لم يرغب في تناول الطعام منذ قليل، لكن لعل شهيته تعاوده حين يراك».

أضع حقيبتي بجانب الحائط.

تجلس أخواتي على وسائد الأرض. تنتشر كراساتهن على السجادة العنابية كأجنحة فراشات.

«متى سيخرج من تلك الغرفة؟» أسأل. أريد أن أحكي له ما حدث، مع أنني لا أعرف ماذا سيقول.

تحولت أوراق شجرة الدلب بالخارج من الأخضر إلى البرتقالي والأصفر والأحمر والآن تتساقط على الأرض. يتبدل الموسم ويتغير، مثلي تمامًا. أضع يديّ في خصري وأرفع ذقني إلى أعلى في أفضل وقفة لفتى. تنظر إليّ أخواتي. تقلب مينا عينيها، تضحك عاليا، وتتظاهر نيلا بأنها لا تلاحظ.

«هذا ليس سهلًا عليه، عبيد». تبدو أمي مرهقة. «كان يحب ارتداء زيه الرسمي كل صباح. كان بخير وهو يعمل. كان يكسب مالًا ليطعمنا، ويكسينا ويسكننا في شقة محترمة. ليس لديه هذا الآن. وحين لا يوجد سبب للخروج من البيت، لا توجد فرصة للعودة إليه سعيدًا».

«لكن هذا ليس خطأه».

«بالطبع، مع ذلك يصعب إخبار رجل بساق واحدة أنه حان الوقت للنهوض».

أعرف كيف يشعر أبي. يظن رحيم أن بوسعنا الوقوف كالفتيان. لكنني أتساءل أحيانًا إن كان لدينا كل ما يستلزمه هذا.

يوجد صحن كبير من الأرز والعدس وصحن صغير من الخضراوات المطهية بالكاري. أصب المزيج السائل على الأرز وآخذ شوكة وملعقة. أحمل الصينية إلى غرفة النوم، أحفظ توازنها ليمكنني الطرق على إطار الباب لأعلن عن وجودي. لا يوجد باب حقيقي، مجرد فتحة كان يجب أن يكون فيها باب، تمامًا مثل أبي تقريبًا ـــــ يوجد فراغ في بنطاله حيث يجب أن تكون ساقه.

يرقد أبي على جانبه، وجهه نحو النافذة فلا أراه.

«أبي»، أقول بهدوء. أتقدم خطوتين. تسبب الانفجار في كابول في تدمير إحدى طبلتي أذنه أيضًا فلم يعد يسمع جيدًا. أرفع صوتي قليلًا.

«أبي؟»

«ما الأمر؟»

«جلبت لك بعض الطعام».

«لست جائعًا».

«تقول أمي إنك لم تتناول شيئًا».

«سآكل حين أجوع».

أقف هناك لدقيقة وأشعر بالغضب منه. أعرف أنه فقد ساقه. لكن ماذا عن بقيته؟ ما زال لديه يداه وذراعاه وساق أخرى كاملة يمكنه استخدامها. كأن كل شيء جميل فيه، ابتساماته ومزاحه، كان في تلك الساق، وحين انفجرت القنبلة أطاحت بكل هذا.

هل سيظل على هذه الحال إلى الأبد؟

أنطق بشيء ما فجأة قبل أن أفكر مرتين.

«متى ستنهض؟»

لا ينزعج من نبرة صوتي المحبَطة.

«أبي، لماذا لا تجلس معنا؟ لماذا لم تعد تسمع الراديو؟»

حين لا يجيبني، يزداد غضبي ثم أخشى أن يكون غاضبًا مني ولن يتحدث معي مجددًا.

«أبي؟»

فيقول بفتور، «ألم تسمع أمك عبيد؟» «لا يمكنك أن تطلب من رجل بساق واحدة أن ينهض».

الفصل الثاني عشر

إنها نهاية العام الدراسي وبداية عطلة مدتها ثلاثة أشهر. أحببت الشتاء دائمًا، حتى بصعوباته التي يأتي بها. في كابول، كان الثلج يمتزج بالتراب ويحول الشوارع إلى كارثة من وحل بني. الأمر بالمثل في قريتنا. لا أمانع هذا لأن الثلج يأتي بأشياء كثيرة أخرى، كألعاب الثلج والعطلات والهواء المنعش.

إنه شتائي الأول كفتى. الآن وقد صرت فتى منذ شهرين تقريبًا، لا أطيق انتظار المغامرات التي سيأتي بها الشتاء الجديد.

يطرق رحيم بابي مع صاحبيه عبد الله وأشرف. أخبرني رحيم أن عبد الله وأشرف كانا يعرفان طوال الوقت أنه، رحيم، ليس ولدًا كاملًا، لكنهما لم يعيرا الأمر انتباهًا البتة. في حين جعلهما هذا أفضل ولدين قابلتهما في حياتي، إلا أنني ما زلت أشعر بالغيرة قليلًا في وجودهما لأنه يعني توزيع انتباه رحيم في ثلاثة اتجاهات ونصيبي ليس الأكبر. رحيم صديق عبد الله المقرب أيضًا. ما أحبه في رحيم أنه يظل، حتى ونحن الثلاثة معه، يشعرني بأنني أكثر من مجرد صديق عادي. أشعر بسرور حقيقي لهذا، رغم أني أصغر منهم بثلاث سنوات.

ولأنه ليس هناك مدرسة، يدعوني رحيم للعب في الثلج معهم. أرتدي قميصًا إضافيًا وسترة ثقيلة تحت معطفي. البرد شديد في الخارج يجعل أنفي يسيل وعينيّ تدمعان. يتحول وجهي إلى فوضى مبللة، ما يشعرني ببرد أشد. لكنني سعيدة مع ذلك.

أتبعهم في الشارع. الثلج يكسو الأرض بارتفاع قدم تقريبًا وما زال يتساقط. نهرول، لكن الثلج يلطخ أقدامنا فنضطر إلى قطع خطوات طويلة وعالية لنصل إلى أي مكان. حين تبدأ أصابع قدمي في التجمد أشعر بضربة على كتفي اليسرى. يبتسم عبد الله.

«هيي!» أصيح. قبل أن يمكنني النطق بكلمة أخرى أشعر بضربة في صدري. يتضامن أشرف مع عبد الله. يقترب مني رحيم ليوازن المعركة. بين يديه كرة ثلج ويوجهها بالفعل.

«لا تقف هكذا عبيد»، يصيح فيّ. «قاتِل!»

كرات الثلج التي أقذف بها هشة وتسقط عند قدمي أشرف أو فوق كتف عبد الله دون أن تلمسهما. رحيم ماهر حقًا ويضرب بما يكفي ليبدو القتال متعادلًا حتى وإن لم يكن كذلك.

أراقبهم فألاحظ خدعًا قليلة. يلتقط عبد الله الثلج الأقرب إلى الأرض لأنه الأكثر تماسكًا. يكور أشرف ورحيم كرات الثلج بين يديهما العاريتين لتتماسك. هذه هي كرات الثلج التي تلسع حتى على قميصين وسترة ومعطف.

في اليوم التالي بعد معاركي بكرات الثلج، عددت سبع كدمات في جسدي. بقع زرقاء مستديرة وتؤلم حين أضغط عليها، لكنني سعيدة بها حقًا. كأوسمة شرف.

بعد أسبوعين من الشتاء. لم يعد على رحيم القيام بكل شيء في معاركنا. صارت كرات الثلج التي أقذفها مميتة.

في يوم آخر، نجد ونحن نجوب في القرية مجموعة فتيان أكبر سنًا. أشعلوا نارًا في صفيحة كبيرة مستخدمين أعواد خشب

وورق جرائد وزيتًا. عبد الله معهم ويلوح لنا حين يرانا. يفسحوا لنا مكانًا ونقف في دائرة ضيقة، ندفئ أيدينا أعلى النار. أحب طريقة تقافز ألسنة اللهب. كما أحب وقوفي في هذه الدائرة، حتى وأنا أقصرهم هنا. بمعطفي وطاقيتي الصوفية، أندمج جيدًا مع الفتية الأكبر سنًّا.

كانوا قد جمعوا بعض الجرائد والمجلات لتزكية النار. ألاحظ صفحة رسوم مصورة وكتابة إنجليزية. تلفت نظري كلمة معينة لأنني ظللت أحدق في حروفها طوال الشهرين الماضيين. WIZARDS. مثل قبعة رحيم تمامًا.

أعلى الكلمة رسم كاريكاتوري لرجل عجوز بوجه تملؤه التجاعيد ولحية طويلة. توجد رسومات أخرى وكلمات أخرى أسفلها. يبدو أنه كتاب لتعليم الإنجليزية. كانت مدرستنا في كابول تستخدم كتبًا مشابهة.

يقف رحيم بجانبي فألكزه بمرفقي. أقاطع حديثه مع عبد الله.

«ما الأمر؟» يسألني.

«انظر إلى هذا». أشير إلى الصورة والكلمة أسفلها. «مثل قبعتك. أظن أنك قلت إنه اسم فريق كرة سلة؟»

ينظر إلى الصفحة في يدي.

«إنه...» يغمغم. أخمن أنه لا يفهم شيئًا من الصورة هو الآخر.

«لماذا قد يسمون فريق كرة سلة باسم عجوز بلحية؟ هذا الرجل يبدو كجد الجد».

علـى وجـه رحيـم تلـك النظـرة التـي تخبرنـي بـأن أيًّـا كان مـا سيقوله فـي الغالب ليس حقيقيًّـا ــــــ أو علـى الأقل ليس تمامًـا.

«لأن... ربمـا كان لاعـب كـرة سـلة قديـم. أتعـرف، مثلمـا يسـمون حدائـق بابـور باسـم الملـك بابـور». يشـير رحيـم إلـى الرسـم الأبيـض والأسـود الـذي أمسـكه. «لا بدّ أن اسـم هـذا الرجـل ويـزارد Wizard».

يسمعنا أحد الفتية الأكبر سنًّا. يرى نظرتي المتشككة.

«إلامَ تنظران؟».

«لا شــيء»، يقـول رحيـم ويفـرد يديـه معًـا أعلـى النـار. يرتعـش قليـلًا. «مجـرد صـورة».

هـذه فرصتـي ليخبرنـي بعـض الفتيـة الأكبـر بمـا يعرفونـه. ربمـا يعرفـون شـيئًا مـا لا يعرفـه رحيـم.

«هـاك، انظـر إلـى هـذا»، أقـول وأنـا أمـرر الورقـة للفتـى علـى الجانـب المقابل مـن الدائـرة. أحـرص علـى ألا أرفـع يـدي فـوق اللهـب لئـلا تطـول النـار طـرف معطفـي. يأخذهـا منـي، إنـه كبيـر بمـا يكفـي ليكـون لديـه شـارب رفيـع. «يقـول رحيـم إن هـذا الرجـل كان لاعـب كـرة سـلة قديـم».

يضحك الفتى.

«كـرة سـلة؟ أنـت لا تعـرف مـاذا تعنـي كلمـة ويـزرد، أليس كذلـك؟» يسـأل رحيـم.

الذي يحمر وجهه من الغضب.

«بلـى، أعـرف! إنـه اسـم فريـق كـرة سـلة»، يعلـو صوتـه وهـو يشـير إلـى قبعتـه. «هكـذا أخبرنـي ابـن عمـي مـن أمريـكا».

«قد يكون كذلك أيضًا، لكن ويزرد تعني ساحر. رجل عجوز يمكنه إلقاء تعاويذ أو إخفاء الأشياء. أتظن حقًّا أن هذا الرجل يبدو رياضيًّا؟» يكور الورقة ويلقي بها في النار. نحدق أنا ورحيم والنار تسود أطرافها وتأكلها كلها.

ساحر. قبعة رحيم قبعة ساحر؟

صارت القبعة فجأة أكثر إثارة. ربما لهذا لفتت نظري حين قابلته أول مرة.

نسير إلى البيت معًا، بيته ليس بعيدًا عن بيتي.

«هذا رائع، أليس كذلك؟ قبعتك مكتوب عليها *ساحر*».

يومئ برأسه. سامحني، تقريبًا، على لفت نظر الفتية الأكبر كلهم إلى أنه لا يعرف معنى الكلمة.

«ربما تمنحك القبعة بعض القوى الخاصة. إن كان لدي أنا قوى خاصة، سأحول نفسي إلى لاعب كرة سلة. أو ربما سأجعل أكوامًا من الطعام تظهر فجأة. ماذا ستفعل لو صرت ساحرًا؟ هل ستحول نفسك إلى طائر؟ نمر؟»

«لا»، يجيبني وهو ينظر لأعلى إلى حافة القبعة. احمرت أذناه وأرنبة أنفه من البرد.

«سأفعل شيئًا ما آخر».

«مثل ماذا؟»

لا يقول شيئًا. ليس عليه أن يقول. أعرف إلى ماذا سيحول نفسه لو كان بإمكانه ذلك.

الفصل الثالث عشر

نجلس أنا ورحيم على جدار منخفض في نهاية السوق. لا يوجد عمل كثير في محل الأجهزة الإلكترونية اليوم، لذلك ترك صاحب المحل رحيم يغادر مبكرًا. اليوم هو أول يوم يمكننا فيه البقاء في الخارج دون أن تتجمد أصابعنا من البرد. ما زال يوجد ثلج ووحل على الأرض، لكن الربيع لم يبقَ عليه سوى أسابيع قليلة وسوف نعود إلى المدرسة سريعًا. يصعب تصديق السرعة التي مرت بها الأشهر الثلاثة لعطلة الشتاء.

«رحيم، انظر إلى هذا!» أشير إلى رجل عجوز يسير في الشارع. يعتمر قبعة من الصوف ويسير بظهر محني بعيدًا عنا. لديه عصا سير طويلة في يده اليمنى ويعرج قليلاً.

«هذا الرجل؟ ماذا به؟» يسأل عمّا لفت نظري في الرجل.

«ألا ترى بماذا يسير؟»

«نعم، عصا. ما الخطب؟»

«إنها ليست مجرد عصا، رحيم. انظر إليها».

يدقق صاحبي النظر. إنها عصا طويلة، بطول الرجل نفسه تقريبًا. تتحرك عيناه لأسفل حتى يدرك ما لفت نظري. توجد في منتصف العصا، عقب فرع مقطوع كحافة صغيرة مبطنة. يرتاح عليها عقب الساق المبتورة ـــــ رِجل البنطال مشمرة لأعلى حيث يجب أن تكون ركبته. يظل فمي مفتوحًا حين أرى كيف يسير الرجل بلا عناء، بميل قليل في مشيته وهو يضع العصا على الأرض ثم يأخذ خطوة بساقه الأخرى.

«واو!»

أنهض. «أجل، أليس هذا رائعًا؟»

«لم أر عصا كهذه من قبل.

«رحيم، إن أبي بحاجة إلى عصا كهذه. أراهن أنه سيمكنه السير أخيرًا بشيء مثل هذا الذي لدى الرجل».

«من أين حصل عليها في ظنك؟»

أركض نحو الرجل لأعرف الإجابة. اللحاق برجل بساق واحدة ليس سهلًا كما ظننت. رحيم خلفي مباشرة.

«عذرًا سيدي»، أصيح. أقترب منه بحيث يمكنه أن يسمعني، لكنه لا يتوقف. يرتدي سترة منتفخة على قميصه وسرواله. لديه كيس بلاستيك في يده اليسرى، يحوي شيئًا ما اشتراه لتوه من السوق.

«سيدي، دقيقة واحدة من فضلك!» أنا خلفه مباشرة. يتقدم في سيره. من هذا القرب أرى الحافة المبطنة التي يستريح عليها عُقب ساقه المبتورة. أراقب سهولة تحركه بهذه العصا فيقفز قلبي. أتمنى لو كان بإمكاني تصويرها لعرض الصورة على أبي.

«لقد سقط شيء ما من كيسك، لا بد أنه يخصك»، يصيح رحيم. يتوقف العجوز فجأة ويستدير. لم يسقط شيء من الكيس، فأرمق رحيم بنظرة. يغمز لي وهو يرفع يديه الخاليتين.

«ماذا سقط من كيسي؟» يغمغم الرجل من خلف لحية هزيلة. يرفع كيسه فلا يرى فيه ثقوبًا. يزعجه هذا أكثر. «لماذا تزعجاني؟ أليس لديكما أي احترام؟»

«عذرا سيدي. لم أقصد إزعاجك، لكن هل لك إذا سمحت أن تخبرني من أين حصلت على هذه العصا؟»

«هذا ليس من شأنك»، يتمتم ويستدير ليواصل سيره. أسرع لأسير بجانبه. أظن أنه مثل أبي ولا يرغب في التحدث عن ساقه. ربما لا يتحدث كثيرًا في بيته أيضًا.

«أرجوك سيدي. أنا أعرف أن الحديث عن ساقك يضايقك، لكنني فقط______»

«يضايقني؟» أثرت حفيظته الآن حقًا. يتوقف ويتقدم نحوي خطوة. أتراجع إلى الخلف خطوة. «ما شأن ساقي بأي شيء؟»

«أظن أنها تزعجك بشدة».

يلقي الرجل برأسه إلى الخلف ويضحك، لكن ليس بسعادة ولا بمرح. يقف رحيم بجانبي، فيطمئنني هذا حقًا.

«أنا منزعج من الجو البارد ولأن صبيين...» يدقق النظر فينا قليلًا ويتجاهل حقيقة أننا قد لا نكون صبيين. هذا ما يفعله الناس، كما عرفت وأنا باشايوش.

«صبيان يلاحقان رجلًا عجوزًا ليغيظاه بشأن ما يسقط من كيسه».

«أوه».

«هذا ما تريانه فقط حين تنظران إليّ، صحيح؟ تريان المفقود فحسب. لا تريان بقيتي».

كان يجب أن أعتذر، لكنني آثرت الصمت. أخشى أن أضايقه أكثر.

«وماذا لو فعلت مثلكما؟ ماذا لو نظرت إليكما ورأيت ما تفتقدانه أنتما؟ أستحبان هذا، أيها الصبيان الصغيران؟»

ينظر إلينا. رحيم قريب مني بحيث أشعر بأنفاسه خلف أذني مباشرة. نفهمه.

«سيدي، لقد فقد أبي ساقه. أريد أن أراه يسير في الشارع مثلك. أرجوك، أريد أن أعرف فقط من أين حصلت على عصا السير تلك».

يهدأ الرجل للحظة.

«ماذا يستخدم ليتحرك الآن؟».

«لا شيء»، أقول وأنا أرفع كتفيّ. «لا يذهب إلى أي مكان البتة. ظني أنه لو حصل على عصا مثل عصاك ربما سيتحرك».

رقّ صوته الآن إلى حد كبير. هدأ روعي أنا أيضًا.

«هذه العصا»، يقول وهو ينظر إليها في يده اليمنى، «ليست بالشيء الكثير، لكنها أفضل ما وجدته. انظرا إليها. ليست سوى فرع طويل. صنعها لي ابني. وكسا هذه الحافة الصغيرة هنا بالقماش».

توجد في الفرع شوكة على شكل حرف Y وفي زاوية تلك الشوكة مُنحنى صغير ملفوف بقماش ثقيل. شيء بسيط جدًّا بالفعل. أنظر إلى رحيم، الذي يبتسم.

«شكرًا لك سيدي! نحن آسفان على إزعاجك!» أقول بحماس شديد. أجذب رحيم من كمه ونهرول في الطريق، حيث تنمو شجرة دلب بعيدًا عن المحلات والأكشاك الصغيرة.

ينصرف عنا الرجل العجوز بقهقهة.

«عبيد، أتظن أن بوسعنا فعلها؟»

«رحيم، أنا أظن أن بوسعنا فعل أي شيء!»

الفصل الرابع عشر

نسير بين الأشجار. أبحث بين أفرعها عن واحد لائق. يجد رحيم واحدًا. لديه عين جيدة في هذه الأمور.

«هذا الذي هناك!»

أنظر إلى الفرع الذي يشير إليه. عصا الرجل العجوز ما زالت واضحة في ذهني، أرى أنه نموذجي بالفعل. طويل ومستقيم وسميك بما يكفي لتلتف حوله قبضة رجل. تتفرع منه أفرع أصغر في اتجاهات مختلفة، لكنّ بعضها سميك بما يكفي لتصير الشوكة التي يستقر فيها المتكأ الصغير.

توجد مشكلة واحدة فقط. الفرع في منتصف شجرة عالية جدًّا.

«كيف سنصعد إلى هناك يا رحيم؟»

«علينا أن نتسلق. ثم نقطعه ونُسقطه. لا أعرف كيف سننجز هذا الجزء.

«أظن أني أعرف!» أشعر بتوتر، ولكن عليّ إنجاز هذا. «ادفعني إلى أعلى».

يشبك رحيم يديه معًا، ليصنع لي درجة سلم. أضع قدمي اليمنى على يديه وأتشبث بأول فرع يمكنني الوصول إليه. أرفع نفسي لأعلى وألصق بطني بالفرع، ثم أرفع ركبتيّ.

أصيح قائلة: «لقد وصلت!». أظل بقرب الجذع ما أمكنني. أنا على ارتفاع نحو ستة أقدام فوق الأرض ولا أريد أن أسقط. ما

زال الفرع أعلى رأسي بثمانية أقدام أخرى. أمد يدي إلى الفرع الكبير التالي.

«انتبه»، يصيح رحيم من أسفل. إن كسرت ساقك، لن أحملك إلى البيت».

أتمتم: «هذا مضحك جدًا». أعرف أنني لا يجب أن أنظر إلى الأسفل، لكنني نظرت. تخفق معدتي حين أرى الارتفاع الذي أقف عليه. أحب تسلق الأشجار، لكنني لم أصل إلى هذا الارتفاع من قبل. أتسلق لأعلى، شيئًا فشيئًا حتى تمسك يدي بالفرع المثالي في سمكه واستقامته. أدفع بقوة ما يمكنني، لكنه لا يتزحزح.

«ما الأمر؟»

«لا يمكنني كسره»، أقول. «سأحاول شيئًا ما آخر».

آخذ نفسًا عميقًا، أنظر إلى الأسفل مجددًا. يدور رأسي حين أرى كم يبدو حجم رحيم صغيرًا. قد يكون هذا كله خطأ.

أنخر، أدفع بنفسي إلى الفرع التالي. أرفع ساقي اليمنى لكنني أخشى تحريك قدمي اليسرى إذ قد يُسقطني وزني من فوق الفرع. لا يقول رحيم شيئًا يدل على أنه قلق جدًا. تتعرق راحتاي.

أتحرك ببطء، أرفع قدمي اليسرى بحرص لئلا أسقط في أي اتجاه.

أتوقف حيث أنا. أنا أعلى الفرع الذي أريده لصنع العصا لأبي، لكن الوقت مبكر جدا للاحتفال. ألفّ ذراعي حول جذع الشجرة في عناق شديد، وأضرب بقدمي على أصل الفرع من الشجرة. فلا يتحرك.

«آخ!» أريد أن أعود إلى الأرض حقًا. اكتشفت، وأنا على هذا الارتفاع لأول مرة في حياتي، أنني أخاف الأماكن المرتفعة حقًا.

«يمكنك فعلها يا عبيد! أعرف أن بوسعك الركل بأقوى من هذا!»

أركلُ، أركلُ، أركلُ.

أسمع طقطقة.

انفصل الفرع تقريبًا! ولكنه تعلق بقطعة صغيرة، مثل سن قد تخلخلت. أركله مرة أخيرة بعزم.

فينفصل!

يغطي رحيم، الذي يحدق نحو الأعلى، رأسه بيديه ويركض بعيدًا. يهوي الفرع على الأرض.

«لقد فعلتها يا عبيد! الآن اهبط!»

أهبط بحرص، أبحث عن الأفرع المناسبة وأهبط شيئًا فشيئًا حتى أقترب من الأرض بما يكفي لأقفز دون الخوف من كسر عظامي.

يلف رحيم ذراعيه حول كتفيّ ويعانقني. يمسك بالعصا في يده اليسرى. الفرع المثالي.

«لقد فعلتها! وشكرًا على توجيه هذا الشيء نحو رأسي مباشرة يا صاحبي».

«كان بإمكانك التقاطه لتقوم بشيء مفيد».

يمكننا المزاح الآن بعد أن عدت إلى الأرض مجددًا.

«كم طول أبيك؟ علينا تحديد الارتفاع الأمثل للحافة».

أتخيل أبي يقف بجانبي وأشير إلى الارتفاع الذي أظنه مناسبًا للحافة. نقطع الفرع، نترك منحنى كافيًا للحافة. ننزع الأفرع الأخرى النابتة منه كلها. يبدو الفرع كعصا الرجل العجوز بالفعل.

تخطر لرحيم فكرة بخصوص الحافة. نعود إلى السوق، حيث نجد بعض الكراتين الخالية بالقرب من المحلات. يلتقط واحدة ويقطعها إلى مجموعة من المستطيلات تناسب الحافة.

«يبدو هذا كأنه سيفلح!»

أبدأ بتقطيع الكرتون معه، بمقاس القطع التي صنعها. نكدس نحو عشر قطع لصنع قطعة قوية بما يكفي للمتكأ. نزيل النتوءات الصغيرة لإفساح المجال بين الفرعين، فتستقر قطع الكرتون تمامًا.

«علينا الآن أن نلف كل هذا بقماش لربطها معًا وستكون جاهزة! سيحبها والدك».

أبتسم. قد تكون هذه العصا هي ما يحتاج إليه أبي ليخرج من غرفته ويعود إلى الحياة. قد يجربه فيدرك أن بوسعه النهوض وحده. هذا أملي.

لكنني في أعماقي أشعر بجزء ضئيل مني أن أبي لن يحبه بأدنى قدر، وأنه حين ينظر إليه لن يرى سوى فرع شجرة ميت.

الفصل الخامس عشر

نخبئ العصا التي لم ننتهِ منها في بيت رحيم حتى أجد قطع القماش التي أحتاج إليها في سلة خياطة أمي. بالأمس، لففت الحافة الكرتونية بطبقات من المخمل البني حتى صارت متكأ ناعمًا. وثبتت القماش بمشك أسفل الحافة بإحكام.

وافق رحيم على المجيء معي لتقديم العصا إلى أبي. نحن الاثنان متوتران قليلًا لهذا. لم يدخل بيتي من قبل، وأظن أن ذلك لأنه لا يريدني أن أدخل بيته. أعرف بشأن أمه وأخواته. لكنني لاحظت أنه لا يتحدث عن أبيه كثيرًا، حتى حين أتحدث أنا عن أبي. لست متأكدة إن كان بإمكاني، كصديق، سؤاله عن سبب هذا أو أن عليّ ترك الأمر فحسب. أترك الأمر، ليس لأنني أريد أن أكون صديقًا جيدًا، بل لأنني أخشى ما قد يخبرني به.

يقف رحيم بالعصا في يده اليمنى. يثني ركبته ويحاول وضعها على الحافة، لكنها أعلى من أن تستقر ركبته عليها. يقف على أطراف أصابعه فيصل إليها بالكاد.

«ظني أنها ستنفع. لقد أحسنت صنعًا بالخامات».

«شكرًا. لا أعرف إن كان هذا المشك سيصمد، لكن ظني أنها تبدو جيدة مثل عصا الرجل تمامًا».

«أتمزح؟ إنها أفضل كثيرًا منها. أسمعت من قبل عن عصا من المخمل؟ إنها من النوع الذي يستعمله الملوك».

لم أسمع عن ملك بساق واحدة من قبل، لكن حماسة رحيم قد انتقلت إليّ. أشعر بخفقان بطني. ينتابني القلق من تقديم العصا لأبي. ربما سيريد تجربتها على الفور. أفتح البوابة المؤدية إلى بيتي.

«وهو كذلك، لنفعلها. أمي وأخواتي بالداخل. لم أخبرهن بأي شيء عن الأمر».

«هل أخبرتهن بأنني قادم معك؟»

«لا». نحن داخل الجدار الفاصل بين بيتي والشارع. «لكن أظن أن أمي ستسعد بمقابلة رحيم صديقي الذي هو فتى مثلي».

يأخذ رحيم نفسًا عميقًا ويعدل قبعة الساحر خاصته.

«آمل هذا. وإن لم يحدث، فلدي خطة».

«ما هي؟»

يلمس حافة قبعته ويبتسم بخبث.

«لم أخبرك بهذا من قبل، لكنني بإمكاني فعل أشياء ذكية حقًا بقبعة الساحر تلك. إن بدا أن الأمر لا يسير على نحو جيد، سأخفي نفسي على الفور».

ازورت عيني، ولكنني أصدقه إلى حد ما. يوجد دائما قدر ضئيل من الحقيقة فيما يقوله، حتى وإن بدا بعيدًا تمامًا عن الواقع.

نسير إلى غرفة جميع الأغراض. نجد أمي جالسة على الوسادة مستندة بظهرها إلى الحائط وتعمل بإبرتيها.

«أمي؟» أخفي مفاجأتي خلفي. «جئت بصديق إلى البيت. هذا رحيم».

تترك أمي شغل الإبرة. ظلت تعمل على سترات لأبناء عمي. يبدو الأمر سخيفًا لأننا في نهاية الشتاء، لكنني أعرف أنها تبحث عن طريقة لشكر عمي وزوجته على ما قدماه لنا من طعام وأشياء أخرى خلال أشهر البرد.

«سلام»، يقول رحيم بصوت عالٍ. يتلبس وجهه تعبيرًا مهذبًا لتحية أمي.

«مرحبًا بك».

تنظر أمي إليّ ثم إليه. أعرف أنها تتساءل كيف آتي بفتى غريب، مراهق تقريبًا، إلى بيتنا وأخواتي هنا. الأمر يختلف عن لعبي مع الفتية في الشارع، ومن غير اللائق البتة أن أُدخِل فتى إلى خصوصية بيتنا ولدي ثلاث أخوات يجب أن أفكر فيهن.

«عبيد، لماذا لا تعلب مع صديقك في الخارج؟ إن أخواتك في الخلف ينشرن الغسيل و...»

قبل أن يمكنني فتح فمي لقول شيء، يتغير وجهها.

«أوه».

ترى رحيم على ما هو عليه. أو بالأحرى، على ما هو ليس عليه. تطلق تنهيدة ارتياح.

«للحظة، ظننتك...» تهز رأسها. «لا بأس. ماذا تفعلان أيها الفتيان؟»

«لدي شيء ما لأبي. صنعناه له».

يقول رحيم: «أنت من صنعته. أنا كنت معك فقط».

تزداد قامتي طولاً بكلامه.

«ماذا هو؟» تسأل أمي.

أضع العصا أمامي. يرتفع حاجباها.

«أصنعت هذا لأبيك؟ كيف؟» يغلبها الفضول بحيث تنهض واقفة. ننظر أنا ورحيم إلى أحدنا الآخر بفخر وهي تلمس الحافة، وتقرصها بأصابعها، وتتراجع خطوة لتبدي إعجابها بعملنا.

« هذا يبدو رائعًا يا أولاد!»

«أتظنين أنه سيحبها؟»

تزم شفتيها.

«يجب أن يحبها. يجب أن يحبها حقًا. هذا تقدير شديد منك أن تصنع له شيئًا كهذا». تضحك. «وكنت أظنك لا تفعل شيئًا سوى اللعب وتلطيخ نفسك بالوحل».

«يمكننا فعل ما هو أكثر من هذا بكثير!» يقول رحيم بابتسامة.

«بالطبع يمكنكما. أتعرفان لماذا؟ وتسألنا أمي بلطف أيضًا: أتعرفان ما مزيتكما المشتركة؟ ثم تجيب هي: «أنكما أفضل ما في العالمين ــــــ نصف من الشرق ونصف من الغرب».

لسنا متأكدين تمامًا مما تقصده بهذا، لكنه يبدو لي جيدًا. أظن أني لمحت عينيها تدمعان قليلًا، لكنها تأخذ نفسًا عميقًا قبل أن أتأكد وتضع يديها في خصرها.

«ماذا تنتظران؟ اذهبا إليه بها».

يتوقف رحيم حين أسير نحو غرفة النوم. تدفعه أمي إلى الأمام.

«لا بأس يا عزيزي. يمكنك الذهاب معه. عليه شكركما أنتما الاثنين لعملكما هذا».

نقف عند عتبة الباب. يرقد أبي على جانبه، ظهره لنا. يبدو رحيم مرتبكًا قليلًا، لكنه متحمس. ظللنا نتخيل تلك اللحظة منذ أن رأينا الرجل العجوز العصبيّ في السوق.

«أبي؟» أناديه بهدوء. حين لا يجيبني أستدير وأهمس لرحيم. «إنه لا يسمع جيدًا بسبب الانفجار».

يومئ لي رحيم بأنه يفهم.

فقلت بصوت عالٍ: «أبي». «لدي صديقي معي هنا. ولدينا شيء ما لك».

يعتدل أبي ليرقد على ظهره. بجهد بالغ.

ويجيبني بفتور: «أنا أرتاح الآن يا بنيّ». «في وقت آخر».

«لكن، أبي، لقد عملنا عليه بكل جهدنا. أظن أنك ستحبه. أرجوك أن تنظر أبي!»

أتخيله واقفًا به بالفعل، يمرر أصابعه على العصا ويضحك، كما ضحكت أمي، لأننا صنعنا له هذه العصا الجميلة. ينظر لنا. جفناه ثقيلان.

«ماذا لديك؟»

«إنها عصا للسير. صنعناها بأنفسنا. أنا تسلقت شجرة لأنزع ذلك الفرع ثم وضعنا قطعًا من الكرتون وطويناها لتستقر هنا تمامًا. أتريد تجريتها؟ نحن لم نقسها تمامًا، لكنني أظن أنها الطول المناسب لك. أرجوك جربها يا أبي العزيز!»

«عصا سير؟»

«نعم!»

يترك رأسه يسقط على الوسادة. يأخذ نفسًا عميقًا.

«انصرفا الآن».

أظن، للحظة، أنني لم أسمعه جيدًا. أنظر إلى رحيم، لكنه يثبت عينيه في الأرض.

«لكن، أبي، ظننت أنك لو جربتها فقط... لقد رأينا رجلًا...»

يغمض أبي عينيه بقوة، كأنه يحاول كتم إعصار يتصاعد في صدره. لا يفلح. يدفع بنفسه إلى أعلى بمرفقيه وتنفجر كلماته في بيتنا الصغير الصامت.

«هل أتيت بصاحبك إلى هنا لتريه عجزي؟ لتريه أباك القعيد؟ أتريد وضعي في نافذة للعرض كحيوان؟ أين احترامك لأبيك؟ هذا ما أريده منك، الاحترام، وليس عصا غبية!»

اضطرب بطني.

«اخرجا!» يواصل عصفه. «اخرجا، اخرجا، اخرجا، كلاكما! أتظنان نفسيكما رجلين؟ أتظنان أنكما تعرفان معنى الرجولة؟ أنتما لا تعرفان شيئًا البتة، أيها المسخان الصغيران الضعيفان....»

تقف أمي بجانبي.

«كفى!» تصيح مرتعدة. ذراعاها على كتفي. «كفى صياحًا. أنت لم تتناول طعامك. الجوع يجعل آلامك أسوأ. دعني أعد لك شيئًا ما لتتناوله ولنترك العصا لوقت لاحق».

«اتركوني وشأني. اخرجوا، جميعكم، اخرجوا!»

ينهار مجددًا على المرتبة الأرضية المسطحة بأنين حزين. منهك تمامًا.

أتراجع خطوة إلى الخلف. لا أشعر برحيم. التفت للخلف، بوجه أحمر خجلا لأنني أقحمت صاحبي في هذه الفوضى.

لكنني لا أراه.

تلتفت أمي لتبحث عنه أيضًا.

كأنه ذرة ملح وذابت. لا وميض ضوء، لا رداء يطير. لا شيء مذهل أو خارق، لكنه قريب جدًّا من السحر الحقيقي عن أي شيء رأيته من قبل. كان يقف خلفي منذ دقيقة واحدة، وأنا أواجه غضب أبي. أبحث حولي، لا أثر له، ولا حتى صوت خطوات أو صوت البوابة المعدنية في الخارج.

الفصل السادس عشر

كان الأمس أول أيام الربيع، عيد النيروز. أول أيام العام الجديد الذي يحل دائمًا بمسرات عديدة. حين كنا في كابول، كان عيد النيروز يعني تلوين البيض المسلوق جيدًا، وتناول الأرز الأبيض مع السبانخ الطازجة، كما يمنحنا الكبار كثيرًا من الحلوى والنقود. كنت أتطلع لمجيئه هذا العام، لكنه لم يعد كما كنت أتوقعه. دعانا عمي إلى بيته، لكن أبي لم يرغب في الذهاب، ولم ترغب أمي في تركه وحيدًا، لذلك مكثنا جميعًا في البيت.

سلقنا بعض البيض لكننا لم نهتم بتلوينه، قررنا لعب معركة بالبيض خلف البيت.

ننقر أنا وأخواتي بيضاتنا بعضها ببعض لنرى أيها ستتكسر أولًا. ظننت أنني قد أفوز هذا العام، كأن بيضتي ستكون بشكل ما أقوى من بيضاتهن وأنا فتى. مع ذلك لا يبدو أن الأمر يسير بهذه الطريقة. انكسرت بيضتي ببيضة نيلا، وانكسرت بيضة نيلا ومينا ببيضة عاليا. كانت سعيدة لدرجة أنها نسيت تقريبًا كل مرح نفعله فيعيد النيروز الذي نفتقده.

اليوم التالي لعيد النيروز، هو أول يوم في الدراسة ويتساقط رذاذ خفيف. لم يكن بالقدر الذي يجعلهم يلغون الاستراحة بل كان يكفي لترطيب تراب الفناء فحسب. تفرّق الفتية في مجموعات صغيرة. وتجمع أغلب الفتيات تحت مظلة. ظهر رحيم اليوم بطريقة غير سحرية على الإطلاق. سار في فناء المدرسة كأن

ما حدث في بيتي الأسبوع الماضي كان شيئًا من مخيلتي. لكنني لا يمكنني التحدث بشأنه.

«لم أعرف أنه (أي أبي) سيغضب هكذا. آسف على ما حدث».

«لا تقلق لهذا الشأن».

«كان في مزاج سيئ على ما أظن». لا أعرف كيف أبرر له ما رآه. يخلع رحيم قبعة الويزردز ويمرر أصابعه في شعره الأشعث.

«أتريد أن تعرف شيئًا ما؟ تنتاب أبي مزاجات سيئة جدًّا هو الآخر».

«فعلًا؟»

يومئ برأسه. هذه أول مرة يقول فيها شيء عن أبيه، وينتابني فضول لأعرف كيف هو، خاصة بالمقارنة بأبي.

«لكن، رحيم، لقد قال أبي إننا مسخان».

«لم يقل أحد عني هذا من قبل». يقول رحيم، «لكن ربما كان محقًّا. ربما نحن مسخان بالفعل».

«ألا تفتقد شيئًا في كونك فتاة؟»

يجيب قائلًا: «لا شيء، وأنت؟»

أرفع كتفيّ.

«أظن أنني أفتقد شعري أحيانًا».

يعض شفته ويلمس عنقه من الخلف.

ويهمس قائلا: «كان لدي شعر طويل حقًّا». «كان يصل حتى منتصف ظهري وكان مجعدًا قليلًا. مثل شعر نيلا تقريبًا».

«كنت آخذ كل ملابس أخواتي. لدى مينا ذلك الفستان الذي صغر عليها. لونه بنفسجي في وردي وبه تطريز على الصدر

والطرف. أهدتها إياه جارة لنا في كابول. كنت أنتظر دوري في ارتدائه، وقد صار الآن مناسبًا، لكنني لم أعد أرتدي فساتين».

«كان البنفسجي لوني المفضل».

«أراهن أنه كان رائعًا عليك». أقول له.

فيجيب: «أراهن أن ذلك الفستان كان سيبدو رائعًا عليك». «من المؤسف أنه لا توجد بناطيل جميلة، صحيح؟»

أضحك ساعتها، وأتخيل بنطالي بتطريز وردي وبنفسجي.

فيعترف رحيم: «هذه هي مشكلة أنصاف الأشياء». «ليس من السهل أن تظن أنك تفتقد شيئًا. لا أريد أن أكون نصف شيء. أريد أن أكون شيئًا واحدًا عاديًّا فحسب».

وأنا أيضًا.

«أتعرف ما سمعته الأسبوع الماضي؟ سمعت أن ثمة فتى مثلنا كبر ليصير رجلًا حقيقيًّا_____ في سن أبوينا».

أهز رأسي. هذا مستحيل. أعرف كيف يشعر تجاه فكرة إعادته إلى فتاة. ربما كان يختلق هذا لأنه يود أن يتحقق ذلك.

«هذا مستحيل. لا أحد سيدع فتاة يافعة تتسكع مع الفتية اليافعين. أي والدين سيدعان ابنتهما تحرجهما هكذا؟»

اقتنع بكلامي.

«في الحقيقة، كانت جدة جدتي مثلنا أيضًا. كانت ترتدي ملابس الرجال وتعمل حارسًا من حراس الملك».

«ملِك؟ ملِك ماذا؟»

«ملك أفغانستان، أيها الحمار!»

أنا على يقين أنه يختلق هذا، لكنني لست في مزاج للجدل اليوم. يقف منتصب القامة. يرفع يده اليمنى كأنه يوقف إشارة مرور. لديه شيء ما جاد يريد أن يتحدث عنه.

«أنت تحب هذا، أليس كذلك؟ الحياة كفتى جيدة».

ظللت فتى لخمسة أشهر وثلاثة أيام. لم تعد أذناي تبدوان كبيرتين كما كانتا. صارت ذراعاي أقوى. أحب الشعور بالشمس في وجهي وأنا أركض. أسقطتُ فتية آخرين في النورساي. في أيام كثيرة يبتسم أبي حين أعود إلى البيت لاهثة، ببنطالي ملطخ ومهترئ عند الركبتين، وشعري ملبد بالعرق. لم تعد معلمتي تدعوني لأقف أمام الفصل كله الآن لأنها تعرف أن بإمكاني حل المسألة، والأهم من هذا، أن وجهي لن يشحب لتحديق زملائي فيّ من الخلف. يمكنني تسلق الأشجار والتشقلب رأسًا على عقب، ليندفع الدم في رأسي.

بالنسبة إلى أبناء عمومتي، والجيران، وعماتي وأعمامي، أنا عبيد. لا أريد أن أكون شيئًا آخر.

«بالطبع. لماذا تسأل؟ ما الأمر؟»

لا ينظر إليّ. يركل الأرض بقدمه.

«لا شيء. بالنسبة إليّ لا أريد سوى أن أظل على ما أنا عليه الآن».

«بأمانة يا رحيم، أنا لا أتخيلك أي شيء آخر».

يسعده قولي هذا. أتساءل إن كان يتحدث عن هذا بسبب ما قالته أمي ــــــ عن أن نصفنا من الشرق ونصفنا الآخر من الغرب. لا أظن أنها قصدت بهذا شيئًا سيئًا.

«ولا أنا أيضًا. لكنني لا أعرف إن كان الجميع يوافقوننا. على الفتية مثلنا أن يعودوا. سمعت أن الأمر سيئ».

أسأله: «ماذا تعني؟»

فيجيبني: «يقولون إننا لا يمكننا أن نبقى هكذا إلى الأبد. يقولون إننا سنعود فتيات مجددًا. قبل أن نكبر كثيرًا. سمعتُ أمي تتحدث مع خالتي عن هذا. قالت إنها سمعتْ أن الفتية مثلنا لا يعرفون ماذا يفعلون حين يعودون فتيات. يتشوشون ويتصرفون بغرابة حقًّا. لا أحب هذا، لذلك ظللت أفكر فيه، وبالأمس خطرت لي فكرة».

أنفجر فيه «أنا لست مشوشًا، ولا أظنك كذلك أيضًا»، وأتجاهل فكرته. لا أريد الحديث عمّا يحدث لمن مثلنا حين يعودون إلى حقيقتهم.

لكننا نصمت، نتساءل إن كنت محقة أم إننا سنشهد بأنفسنا. لا أظن أن رأسي مشوشًا. ورحيم، مع أنه يصبح عنيدًا أحيانًا، لكنني متأكدة من أن رأسه بخير هو الآخر. قضينا معًا صباحات وفترات ظهيرة وأمسيات، ونحن نعتبر أن ما نحن عليه هو أكثر شيء طبيعي في الوجود. نعرف أننا أذكى من الفتية وأقوى من الفتيات. ليس شيئًا نقوله بالكلمات. بل بالطريقة التي نربت بها على ظهر أحدنا الآخر أو بالضحك حين يتعثر أحد الفتية في مباراة كرة قدم. النظرة التي ينظر بها إليّ حين نمر بمجموعة فتيات يحاولن منع طرحهن من الطيران مع الريح. في سيرنا على مهل ونحن عائدين إلى البيت من المدرسة، نعرف أننا ليس علينا الإسراع. فيما يلعب الفتية في فناء والفتيات في فناء آخر،

نتجاوز أنا ورحيم الجدار العالي الخيالي الفاصل بينهما، فنقترب من السماء أكثر من أي شخص آخر. فنصير غير قابلين للمس.

يقول رحيم بثقة: «أنا لا أشعر بتشوش مطلقًا». «لكنني أعدك بهذا ــــــ إن حاول أحد ما إخباري بأنني فتاة، فسأغضب بشدة حتى أنني سأشوش له رأسه».

ولهذا أحبه.

فأجيبه، «ستسعدني مشاهدة هذا!»

«أنت مدعوّ للمشاهدة يا صاحبي».

أتساءل كيف وصلنا إلى هنا، حيث يدعوني رحيم إلى مباراة بينه وبين الشخص الخيالي الذي تجرأ على دعوته بفتاة (مع أنه فتاة حقًا). أتذكر ما قاله منذ قليل.

«انتظر، قلت إن لديك فكرة. ماذا كانت؟»

يرفع ذقنه وتشع عيناه ببريق.

«تريد أن تعرف، أليس كذلك؟»

«بالطبع، لماذا لا؟»

«أخبرتني أمي ذات يوم بأسطورة ــــــ عن قوس رستم. تقول إن المرور من تحته يحول الفتى إلى فتاة والفتاة إلى فتى. حتى وإن مرت من تحته امرأة حامل، يتحول الرضيع الذي في بطنها».

يبدو هذا مألوفا لي إلى حدٍّ ما. أراهن أن أحد جدّيّ أخبرني بهذه القصة وأنا صغيرة.

يهمس رحيم: «أظن أن علينا فعلها».

«فعل ماذا؟ نمر من تحت قوس قزح؟»

«هذا أسهل من المرور من فوقه».

«أأنت جاد؟»

«بالطبع. أريد أن أمر من تحت قوس قزح وأن أتغير إلى الأبد. أنا لا أريد أن يكون هذا وضع مؤقت. أتريد أنت ذلك؟»

«بالطبع لا ... أنت تعرف. لكنها مجرد قصة، أم إنها حقيقة؟ أتعرف أحدًا تغير بعد مروره من تحت قوس قزح؟»

يهز رأسه.

«لا. لكن أظن أنها حقيقة. الجميع يعرفها. أمي وخالتي سمعتاها من جدتهما. تخيل منذ متى والجميع يعرفها ـــــ لا بد أنها مئات السنين على الأقل. وإن لم تكن حقيقة، لم يكن الناس سيواصلون التحدث عنها. ربما نعرف أشخاصًا حدث لهم هذا لكنهم لا يتحدثون عنه. الأمر لا يمكن إدراكه بمجرد النظر».

«لا أعرف. ما الذي جعلك تفكر في هذا؟»

ينظر إلى الأرض.

«لدي هذا الشعور... كأن شيئًا ما سيحدث. رأتني أمي بالأمس ألعب في الشارع مع الفتية. كنا نلهو فقط، نؤدي بعض حركات الكاراتيه، نتصارع. لم يكن شيئًا كبيرًا، بل اللهو العادي فحسب. لكنها رمقتني بتلك النظرة كأنني أركض في الشارع عاريًا أو شيئًا ما كهذا. وحين عدت إلى البيت لم تتحدث معي».

«وتظن أنها ستعيدك مرة أخرى كما كنت». أفهم الآن لماذا ينبش في الأساطير بحثًا عن طرق لإنقاذ نفسه من التحول مجددًا. قد يتحدث صاحبي بقوة، لكننا في نهاية اليوم، ما إن نعود إلى بيتينا نعرف نحن الاثنان أن الأمر ليس بيدنا. حينها يتغير كل شيء. نتحول من ملوك مصيرينا إلى طفلين يحكمهما

والـدان. وللوالديـن أيـام هـانئـة وأخـرى سـيئة، أو لحظـات شـك فيمـا يفعلانـه. بـاب بيـت كل منـا علـى النقيـض مـن قـوس قـزح، يبـدو كشـبكة قاتمـة ومعقـدة فـي السـماء الزرقـاء.

يشـعر رحيـم بهـذه الشـبكة الآن. تنظـر إليـه أمـه بشـكل مختلـف. عليـه أن يتحـرك قبـل أن تتحـرك هـي.

أسـمع الدمدمـة البطيئـة للرعـد مـن بعيـد. سـادت العتمـة السـماء دون أن نلاحـظ. يأخـذ رحيـم نفسًـا عميقًـا. تأخـذ كل قطـرة رذاذ ذرة تـراب، فتجعـل الهـواء أنقـى قليـلًا وهـو يمـر فـي رئتينـا.

تـزداد قطـرات المطـر سـمكًا وثقـلًا لحـد أن أشـعر بـكل قطـرة تضـرب رأسـي، دغدغـة بـاردة خفيفـة علـى فـروة رأسـي قبـل أن تنزلـق علـى مؤخـرة عنقـي. فـي الطـرف الآخـر مـن الفنـاء، أرى فتـاة وهـي تنظـر إلـى المطـر مـن تحـت الظلـة. تمـد راحتهـا المفتوحـة. تتقـدم خطـوة مـن تحـت الظلـة إلـى الفنـاء، رافعـة راحتيهـا الاثنتيـن إلـى السـماء. ترفـع وجههـا إلـى السـماء لتلتقـط قطـرات المطـر علـى خديهـا، وجفنيهـا، وشـفتيها. تُخـرج طـرف لسـانها وينثنـى أنفهـا فـي مـرح. تبـدو سـعيدة جدًا، كأن قطـرات المطـر القليلـة أفضـل شـيء حـدث لهـا.

حينهـا أقتنـع بمـا قالـه رحيـم. حـان الوقـت لنبـدأ البحـث عـن قـوس قـزح.

الفصل السابع عشر

أعرف أن أخواتي استيقظن حين أسمع حركتهن، سعالهن أو حديثهن. لكن الأمر مع أبي على النقيض. حين يستيقظ نادرًا ما يصدر عنه صوت، لكنه حين ينام، يتحول تنفسه إلى شخير خشن وقوي. أراهن أن بوسع جارتنا عد أنفاسه، إذ لا يفصل بين فنائينا سوى جدار طيني رفيع. ربما كانت تفعل ذلك بالفعل. لأنها تحشر أنفها حقًّا. هذا طبعها.

أقف في الممر وأعرف أن أبي مستيقظ لأن كل شيء هادئ ــــــ لا أسمع صوت تنفسه العادي أيضًا. أتخيله على مرتبته، يحدق في السقف أو في الصورة العائلية المعلقة على الجدار. أدنو من الباب واختلس النظر. يرقد على جانبه. عيناه مغمضتان، لكنه لا يشخر.

«أبي؟» أهمس. أقترب بحرص. أخشى انفجارًا آخر.

يفتح عينيه كأنه في انتظاري أن أتحدث.

«نعم، بنيّ».

أعرف أنه ليس منزعجًا مني اليوم. أرتاح لهذا. أدخل الغرفة وأقعد على كرسي خشبي له وسادة من قماش. تجلس أمي عليه حين تريد أن تتحدث معه. نتظاهر أنا وأخواتي أننا لا نسمعها وهي تتوسل إليه أن يأتي إلى غرفة جميع الأغراض أو أن يسمح لبعض أقاربه بزيارته. العصا التي صنعتها له قابعة في ركن من الغرفة. أنا واثقة بأن أمي هي من وضعتها هناك. أحول بصري بعيدًا عنها. فرؤيتها تذكرني بذاك اليوم.

«كيف حالك يا أبي؟» تلمع عيناه بهدوء. «كيف حال الألم؟»

«أنا بخير، عبيد. أشعر بالراحة حين أسمعك تتحدث. كيف حالك في المدرسة؟»

أسمعه الآن كما كان حاله في كابول، ليس الأب الغاضب ذا الساق الواحدة. يمكنني أن أتنفس بسهولة.

«بخير. تقول معلمتي أن خطي تحسَّن كثيرًا عما كان منذ شهور. ظننت أنني قضيت شهور الشتاء أتمرن. ونلت درجة جيدة جدًّا في أول امتحان علوم بعد عطلة الشتاء».

«العلوم؟ هذا جيد. لم تكن مادتي المفضلة. مع ذلك كنت أريد أن أصبح طبيبًا. ألم أخبرك بهذا من قبل؟ كنت أريد أن أسير في المستشفى فيسعد المرضى لرؤيتي».

«كنت ستصبح طبيبًا جيدًا يا أبي العزيز».

«ربما. من سوء الحظ أننا نعيش حياة واحدة فقط».

كنت قد قضيت ساعات أحدق في الصورة خلفي. نُقشت تفاصيلها في ذاكرتي بألم. أُخِذت لنا نحن الستة حين كنا في كابول ــــــــ والداي وفتياتهما الأربع. يجلس أبي وأمي على أريكة، بوجهين جادين وظهرين مستقيمين. يرتدي أبي بذلة بلون زيتوني وشاربه رفيع وأنيق. ترتدي أمي ثوبًا أسود بزهور رمادية صغيرة على الياقة. تغطي رأسها بوشاح رمادي فاتح ينكشف عن مقدمة شعرها المصفف على الجانب وينسدل خلف أذنها. ترتدي قرطًا من الزمرد اشترته قبل أن نغادر كابول. تقف نيلا ومينا إلى جانبي والدي في فستانين مطبوعين بالزهور. وأجلس أنا وعاليا على ركبتينا أمامهما في سترتين بنفسجيتين متشابهتين وتنورتين زرقاوين.

أجلس في الصورة على ركبتي أمام أبي مباشرة، أخفي ساقيه السليمتين عن الكاميرا. أتمنى لو يمكنني تحريك نفسي في الصورة ليكون لدينا على الأقل صورة لساقي أبي. هكذا لن نتخيله كما هو الآن دائمًا. أتساءل إن كان يفكر في الشيء نفسه وهو يحدق في الصورة ويتمنى لو يمكنه تحريكي جانبًا قليلًا.

«كنت رجل شرطة جيدًا».

«ماذا تريد أن تكون يا عبيد؟» سؤال من غير المعتاد أن يسأله، ولست متأكدة من إجابته. لم أفكر مؤخرًا إلا في ما لا أريد أن أكونه.

«ربما مهندسًا. ليس فلاحًا بالتأكيد. لو كنت المسؤول عن ري نباتات الفلفل خاصتك لكانت قد ماتت منذ وقت طويل».

يضحك. صوت نادرًا ما أسمعه، ويسرني أنني من أثرته. يبدو أهم ما فعلته طوال أسابيع. يسود الصمت الغرفة مجددًا. أتردد في التحدث، لا أريد تحطيم تلك اللحظة.

«ماذا كنت تتعلم في المدرسة؟»

«أشياء كثيرة ومختلفة. نظرنا في خرائط، وعرفنا أسماء الجبال...»

«حين كنت في سنك، قضيت أيامي أتجول في أنحاء القرية مع إخواني. كان بإمكاننا استخدام خريطة».

لا أتخيل أبي وهو في سني. أتساءل إن كنا سنكون أصدقاء.

«أوجدت شيئًا؟»

يأخذ نفسًا عميقًا ويطلقه.

«عثرنا ذات مرة على ضريح قديم، حيث يذهب الناس للصلاة وربط شرائط النذور بسوره، يقولون إنك إن ذهبت إلى هناك وتمنيت شيئًا فسيتحقق. مزقنا أطراف سراويلنا لربطها لأنه لم يكن لدينا شيء آخر. غضبت جدتك بشدة...»

أنفجرُ في الضحك. وهو يبتسم.

«ماذا تمنيت حينها؟» سألته.

«إن سألت أي طفل في القرية، سيخبرك بالشيء نفسه، دراجة. هذا ما تمنيته أنا أيضًا».

«وحصلت عليها؟»

«الدراجة؟ صدق أو لا تصدق عاد جدك إلى البيت بدراجة بعد ذلك بأسبوع. لم تكن لي وحدي بالطبع. كانت لنا جميعًا. لكنني قدتها بدوري».

أفكر في ما قد نفعله أنا ورحيم بدراجة. أتخيله يبدّل وأنا على القضيب المعدني أمامه. سننطلق بها في البلدة، ونغيظ الفتية الذين نمر بهم ونطيح بقبعاتهم بسرعة قبل أن يلاحظوا. سنمر سريعًا بالفتيات اللاتي لا يجرؤن على الحلم بالسماح لهن بركوب دراجة.

«أين هذا الضريح؟»

«لم يعد موجودًا. دمرته الحرب»، يقول وهو يرفع كوب ماء ويرشف منه.

«أين ذهبت أيضًا؟»

«إلى بحيرة ذات مرة. أوه، ولكن أفضل مكان وجدناه كان الشلال».

أسمع ضحك أخواتي في المطبخ.

«أين كان هذا؟ لم أر شلالًا من قبل».

«وجدناه مصادفة. هذا ما يحدث حين لا يكون لديك شيء لفعله وإخوة أكبر منك سنًّا ليصطحبوك. سرنا عدة ساعات للوصول إلى هناك. سرنا وتسلقنا وزحفنا في الحقيقة. وجدنا دربًا عند حافة القرية حيث تنتهي الجبال. كنا صبية صغارًا ونفعل أشياء لا ينبغي لنا فعلها، كالمعتاد. أتذكر سماع ذلك الصوت، كهدير مبلل، كان يعلو شيئًا فشيئًا كلما اقتربنا. لم نعرف ماذا كان لكن كان علينا أن نعرف».

«أكان عاليًا إلى هذا الحد؟ أكان ذلك الشلال؟»

«كان كذلك بالفعل. لو كان أمكننا كنا سنصعد إلى أعلى لنرى من أين يأتي الماء، لكنه كان منحدرًا خطِرًا حتى على صبية عنيدين مثلنا». يشخص ببصره، كأنه يرى كل شيء أمامه مجددًا. «لن أنسى ذلك المكان أبدًا. وقفنا أسفله نحدق إليه. كانت المياه تنهمر بقوة. الرذاذ وأقواس قزح والهواء...»

لا أسمع شيئًا مما يقوله بعد ذلك.

أقواس قزح.

أقول فجأة وأنا أنهض حتى يكاد الكرسي يسقط: «أبي العزيز». ينظر إليّ أبي بتساؤل. «تذكرت لتوي شيئًا ما عليّ إنجازه للمدرسة غدًا... فرض منزلي... وإن لم أنجزه... سأعود خلال مدة قصيرة...»

أسير إلى الخلف فأصطدم بإطار الباب ويصطدم رأسي بالحائط. أندفع في الطرقة وأشعر بقلبي يتقافز. يجب أن أذهب إلى رحيم.

أركض إلى الفناء مباشرة وأتعثر في أمي وهي تدخل من البوابة. ترتفع يداها لتحمي بها بطنها. ترتدي ثوبًا منزليًا واسعًا بلون أزرق سماوي بشريط عند الخصر. أفغر فاهي دهشة. لقد رأيت استدارة في بطنها لم ألحظها من قبل. تنظر أمي في وجهي وتهم بالتوضيح، لكنها ليست مضطرة. أفهم فجأة أن أثواب أمي الفضفاضة تخفي شيئًا ما ــــــ إنها حامل.

« عزيزي عبيد، أظن أنه حان الوقت لإخبارك....» تقول بتردد.

«أمي العزيزة، إن بطنك...»

«إنها أخبار جيدة لأسرتنا. سيكون لدينا صغير قريبًا».

«صغير. أمي، أنتِ...»

تلمع عيناها ببصيص أمل.

«لم أرغب في قول شيء لأحد حتى الآن، لكنه ليس شيئًا يمكن إخفاؤه لوقت طويل».

لو جاءت فتاة، ستنتظر دورها لارتداء الفساتين المستعملة. أو ربما سيجعلونها هي الباشابوش إذ ستكون أصغر وأسهل في التنكر.

لكن، ربما جاء فتى. حينها سينتهي أمري.

سيحظى والداي بالابن الذي يريدانه وستكون مهمتي كباشابوش قد أنجزت. أشعر بانقباض في معدتي، مثل شعور رحيم نفسه.

ترى أمي الإحباط على وجهي. تعض شفتها.

«عبيد»، تصيح، لكنني عبرت البوابة إلى الخارج بالفعل، يطأ حذائي أرض الشارع والدموع تسيل على وجهي. يجب أن أذهب إلى رحيم. يداهمنا الوقت نحن الاثنين، وقد أكون قد اكتشفت لتوي الحل لهذه المشكلة.

أعرف أين أجد أقواس القزح التي لا تخفت.

الفصل الثامن عشر

ظللت أنا ورحيم نفكر في كيفية المرور من تحت قوس قزح. واجهتنا مشكلات قليلة.

بادئ ذي بدء، لا يهطل المطر في قريتنا سوى مرة واحدة فقط في الشهر تقريبًا.

بحثنا عن أقواس قزح مرّتين بالفعل منذ أن بدأنا البحث؛ مرة عند الطرف الأقصى لبركة من البرك والأخرى خلف مدرستنا. كنا نستشعرها جيدًا ونذهب في البحث عنها وإنما دون طائل. بقدر ما ركضنا، لم نقترب منها قط. كأنها على سطح القمر.

لذلك تحمست لإخبار رحيم بفكرتي.

«شلال»، قلت بابتسامة خبيثة. أذهب إلى المدرسة مبكرًا فأجده في الفناء، يستند إلى جذع شجرة. ينهي فرضًا منزليًّا قبل بدء الحصص ولا ينتبه لي.

«رحيم، أتسمعني؟» شلال. هذا ما نحتاج إليه».

«نعم، نعم أسمعك، شلال. عن ماذا تتحدث؟»

حين أخبره بشأن الشلال، يضع قلمه الرصاص. ليس متحمسًا. لكن، ثمة فضول في صوته.

«سننطلق ما إن نخرج من المدرسة»، يخطط. «ليس أمامنا وقت لنضيعه».

أدخل فصلي وأنا أشعر بأنه يخفي شيئًا ما عني.

نتطلق بعد المدرسة مباشرة. تفصل أربعة جبال قريتنا عن باقي الإقليم على الجانب الآخر منها. أحدق في قممها، يداي أعلى عيني لتقيهما الشمس الساطعة.

«أيها في رأيك؟» يسألني رحيم.

«قال أبي إنه كان كبيرًا بحيث لم يتمكنوا من تسلقه. وأن صوته كان عاليًا لدرجة أنهم سمعوه قبل أن يصلوا إليه بمسافة كبيرة».

نسير في سهل فسيح مترب. لا شيء به سوى رقع من أعشاب طويلة مصفرة على طول الطريق. لا توجد مياه كثيرة هنا، النباتات لا تعيش.

نسير بحذر ونبقي أعيننا على الأرض. لا نرغب في أن يزحف نحونا شيء من تحت الصخور ويمسك بنا على حين غرة. توجد ثعابين وعقارب في هذه الأنحاء، وتعلمنا جميعًا أن نحذرها. إنها سامة وقاتلة أحيانًا. لا أريد أن أفقد ساقي. أشعر بالسوء لتفكيري هكذا، لكنني لا أريد أن أكون مثل أبي.

أحاول اقتفاء أثر طفولة أبي. أي طريق كان سيسلك؟ تنساب سلسلة الجبال على طول الحدود الشرقية لقريتنا. يمكنك في الصباح رؤية الشمس وهي تشرق من خلف القمم المسننة. تقع كابول على الجانب الآخر من تلك الجبال. ليست على الجانب الآخر مباشرة، لكنها مسافة عدة أيام سفر. توجد على الجبال رقع خضراء حيث أفلحت أشجار في ضرب جذورها فيها.

يسأل رحيم بصوت عالٍ: «كيف سنعثر على الشلال هناك؟»

أفكر في السؤال نفسه وأنا أنظر إلى القمم أمامي.

نسير، نلتفت خلفنا كل عدة دقائق على أمل أن نتذكر الطريق في العودة.

«أترى تلك الأشجار بالأعلى هناك؟ إنها خمسة في كتلة واحدة. قد يكون هناك درب إلى يسارها، بين هذين الجبلين. ربما كان هذا هو الطريق الذي سلكه أبوك. هل أخبرك بأي شيء آخر عن كيف وجدوا الشلال؟»

«لا، لم يقل شيئًا، لكني أظن أنه سيكون هناك، أقول بأمل. «قال إنه كان هناك درب، وإن كان هناك أشجار، ففي الغالب سيوجد ماء، صحيح؟»

نطمئن للقدر الذي تعلمناه في مادة العلوم ونقرر التوجه إلى الدرب. نسير لمدة ساعة. كنا قلقين فلم نتحدث كثيرًا. عددت في ذهني الطرق التي قد ينحو بها الأمر منحى سيئًا: ربما اخترنا الدرب الخطأ، قد لا نتمكن من العودة إلى البيت، وقد يكون الشلال قد اختفى. لم تكن قائمة الأفكار هذه مشجعة.

ينفد صبر رحيم ويقول: «كم سيظل أمامنا في رأيك؟»

«لا أعرف»، أغمغم. «كان علينا أن نصل الآن بالفعل حسبما ظننت».

أشعر أن الجبال تبتعد عنا. لا يبدو أننا نقترب من أي شيء، وقد ظللنا نسير قرابة ساعتين. من حسن الحظ أننا في الربيع وقد عاد النهار يطول مجددًا. تُدفئنا الشمس. مع أن الجو ليس حارًا تمامًا، لكننا ظللنا نسير لوقت طويل وقميصي يلتصق بجلدي.

«أنت لا ترتدي قبعة الساحر»، أقول حين ألاحظ ذلك.

«نعم، نسيتها في اليوم غير المناسب»، يقول رحيم. «أتعرف، ظلت معي منذ أن تغيرت. أرتديها كل يوم تقريبًا».

أعرف أن ما يعنيه صاحبي بـ «تغيرت» أي منذ أصبح فتى.

«لم أصدقك في البدء لكنني أعرف أنها قبعة الحظ بالفعل. مع اعتبار تصرفاتك حين قابلتك أول مرة، أنت محظوظ لأنني وافقت على مصادقتك!»

يدفعني بمرح. «أحيانًا تكون خفيف الظل جدًا عبيد، أحيانًا».

نصل إلى سفح الجبل وقت مغيب الشمس. يقرقر بطنانا وتؤلمنا أقدامنا. أحذيتنا من بلاستيك رخيص لا يحتمل السير على تلك الصخور. أشعر بالفعل بالبثور تتبثق في قدمي.

«أنا ظمآن». لم أقصد سوى البوح لكنه خرج بنحيب.

«وأنا أيضًا»، يوافقني رحيم.

«حين نصل إلى الشلال، سنجد وفرة من الماء لنشربه».

إن وصلنا إلى الشلال.

بدأنا السير في الدرب، متوترين قليلًا لبعدنا عن البيت. السماء بنفسجية أكثر منها زرقاء الآن، والجو هادئ تمامًا.

سألت رحيم: «أأنت متأكد من هذا؟».

«لا بد أن يكون قريبًا. لا بد من هذا»، يقول بيقين، لكنني لست متأكدة. اليقين من سماته هو، حتى وإن لم يكن متأكدًا.

«أتسمع صوت ماء؟»

نتوقف لنرهف السمع بتركيز شديد للهدير الذي أخبرني عنه أبي.

يقول: «اصمت».

أضع يدي في خصري. لم أحدث صوتًا ولا أحب أن يسكتني رحيم هكذا.

«أنت من تصنع ضجة». أهمس. «قل لنفسك أنت أن تصمت».

«عبيد، لم يكن هذا أنا»، يجيبني همسًا.

نتجمد في مكانينا. يدق قلبي بقوة، وأشعر براحتي تتعرقان. نسمعه مجددًا. أنظر في الأرض من حولي. ويقلدني رحيم. توجد صخور كبيرة على جانبي الدرب وصخور صغيرة في كل مكان. خيم الظلام بحيث لم تعد الرؤية في الظل ممكنة.

أهمّ بإخباره بأن علينا العودة حين أشعر بدغدغة على كاحلي. كأن حزامًا جلديًا ينزلق على قدمي. أشعر بتوتر بالفعل بسبب الظلام ولأننا نسمع شيئًا ما، ولأن معدتي تخلو من أي طعام يُهدئ أعصابي.

تتحرك قدمي برد فعل لا إرادي، وهي تركل الهواء لتنفض أيًّا كان ذلك الشيء بعيدًا عني ما أمكن. يستغرق عقلي ثواني لإدراك ما حدث. حين أسجل ما حدث تكسر صرختي هدوء المساء.

«ثعبااااان!»

يمسك رحيم بيدي.

«أهو عليك؟ هل لدغك؟»

«لا، لا، لكنني شعرت به! لقد نفضته بعيدًا!»

«أين هو؟»

«لا أعرف. ربما هناك في مكان ما!»

نصمت كما لم نصمت من قبل. لا أسمع شيئًا نهائيًّا.

تسري رعشة في عمودي الفقري.

«أريد أن أعود».

«لقد اقتربنا جدًا»، يقول رحيم. «قد يكون الشلال على الجانب الآخر من هذه التلة».

«وقد يكون على جبل آخر»، أهمس. يبدو كأننا اتفقنا، ضمنيًا، أن الهمس أفضل من التحدث بالصوت العادي. «لا يمكننا رؤية طريقنا، ونحن جائعان. لن نقطع مسافة كبيرة».

«لقد قطعنا كل هذه المسافة». يبدو رحيم محبطًا حقًا. «يجب أن نتحلى بالشجاعة».

يغضبني هذا. يسهل عليه قول ذلك لأن الثعبان لم يزحف على قدمه هو.

«أنا شجاع»، أقول بحدة. «لكنني لست غبيًا».

«إن لم ترغب في المجيء إلى هنا، كان عليك قول هذا. كنت سآتي وحدي».

«رحيم، إنها كانت فكرتي أن نبحث عن الشلال، أتذكر؟ لا تتصرف هكذا. دعنا نأتي في يوم آخر ــــــ في الصباح، لنرى طريقنا».

يحدق في الأرض. كتفاه متهدلتان. أحاول لمسه، لكن يتراجع بحدة ــــــ كأنني ثعبان.

«حسنًا. كما تشاء، لكنني سأعود».

أقول لكن لا أحد منا يتحرك. الحقيقة أننا مذعوران من التحرك ومن البقاء في مكانينا بالقدر نفسه. شعور رهيب أن تخاف من شيء ما لا يمكنك رؤيته.

يأخذ رحيم نفسًا عميقًا.

«حسنًا»، يقول بانهزام. «سنعود».

نستدير على عقبينا، لا نتحدث. غضبت منه بشدة لقوله إن عليّ التحلي بالشجاعة. ما يعني أنني جبان، وأنا لست كذلك. لا يتصرف بشكل طبيعي، لا أعرف لماذا.

«لا أصدق أنك نفضت الثعبان بعيدًا عنك. كان ذلك شجاعة حقًا، عبيد».

«شكرًا»، أقول كأن الأمر لم يكن كبيرًا. يظل صامتًا، لكننا على الأقل لم نعد غاضبين أحدنا من الآخر.

«هيه، رحيم»، أقول. أريد أن أروّح عنه حقًا. «ربما أمكننا المحاولة مجددًا يوم الجمعة، حين لا توجد مدرسة؟ يمكننا الانطلاق مبكرًا جدًا في الصباح ليكون لدينا متسع من الوقت. وسأرى إن كان أبي يتذكر أي شيء آخر عن الشلال. ربما أمكنني تحديد أي طريق نسلك».

يتقدمني رحيم بخطوات قليلة.

«نعم، هذه فكرة أفضل غالبًا»، يقول. «ربما اليوم ليس اليوم المناسب للعثور على الشلال».

«ماذا تعني؟»

«أتعرف، المصير والقدر وكل هذه الأمور».

«أتؤمن بالقدر وهذه الأشياء؟»

يبطئ سيره حتى ألحق به. نسير جنبًا إلى جنب، يتماس مرفقانا في الظلام. ليس بشكل مزعج مع ذلك. كأن ذراعًا حول كتفي. يفكر في سؤالي عن القدر قبل أن يجيب.

«أحيانًا أومن به وأحيانًا لا. حين يحدث لي شيء ما جيد، لا أفكر في أن للقدر أيَّ علاقة به. أفكر في أنه شيء ما صنعته أنا».

«وماذا لو حدث شيء سيئ؟ تؤمن بالقدر حينها؟»

يخرج صوته باردًا وقاسيًا.

«أتمنى حينها لو يكون القدر رجلًا لألكمه في وجهه».

الفصل التاسع عشر

أنتظر رحيم في فناء المدرسة. الوقت مبكر، وسيصل قريبًا. أرى أشرف وعبد الله يسيران معًا.

عدنا إلى البيت في وقت متأخر ليلة أمس، وأتساءل إن كان قد واجه مشكلات بقدر ما واجهت. كانت أمي حانقة بشدة حتى أنها رفضت فتح البوابة لي. حين بدأت أعتذر (ما يعني التوسل بملء رئتيّ)، فتحت البوابة بسرعة حقًّا وأمسكت بي من مرفقي، وقذفت بي فعليًّا في فناء بيتنا.

قالت كل ما عرفت أنها ستقوله. كنت أعرف أنني سأواجه مشكلات لعودتي إلى البيت متأخرًا، وكان الأمر سيستحق لو كنا قد وجدنا الشلال بالفعل أو قوس قزح. خطر لي أيضًا إننا حتى لو كنا وجدناه، كانت السماء قد تحولت بالفعل من البرتقالي والبنفسجي إلى أزرق داكن ورمادي. لم يكن ثمة ما يكفي من ضوء لوجود قوس قزح. أردت أن ألكم نفسي لغبائي.

كانت أمي غاضبة بشدة إلى حد أن خرجت جميع أفكارها في خيط واحد طويل من: *أين كنت؟ وهل تحاول أن تفقدني عقلي؟ وفي ماذا كان عليّ أن أفكر أنه حدث لك؟ تغيرت نبرتها من بطيئة وغاضبة إلى سريعة وهادرة. لم أستطع مجادلتها فأبقيت رأسي مطرقًا وغمغمت بسلسلة بطيئة من أنا آسف حقًّا يا أمي العزيزة، أعدك أنني لن أكرره أبدًا.*

لم نتحدث قط عن أين ذهبت أو لماذا.

بدأت المدرسة ولم يأت رحيم. أجلس في الحصص، تنقر قدمي القلقة على الأرض مع مرور الثواني لحين موعد الاستراحة. أنا أول من يقف في الفناء. أبحث بين مجموعات الصبية، لا أحد يرتدي قبعة ويزاردز.

رحيم ليس هنا.

«هيه أشرف... عبد الله» أصيح. يلتفت أشرف. عند قدمه كرة قدم ويهم بركلها إلى عبد الله حين أقاطعهما.

«الشاب الصغير»، يقول بحركة من رأسه. «ما الأمر؟»

يعاملانني كأن الفارق بيننا أكثر بكثير من ثلاث سنوات. لكنهما لا يغيظانني بأكثر من ذلك، لهذا لا أشكو. أقترب من عبد الله خطوة.

«أرأيتما رحيم؟»

يهزان رأسيهما. لم يحضر رحيم إلى الفصل اليوم.

«عدنا إلى البيت في وقت متأخر ليلة أمس، وأريد أن أعرف إن كان واجه مشكلات. أنا واجهت بالتأكيد».

يقهقهان.

«ماذا كنتما تفعلان؟»

«أوه... كنا فقط...» أنظر إلى الكرة عند قدمي أشرف. «كنا نلعب كرة قدم».

«حتى وقت متأخر؟»

«نعم، نفعل ذلك أحيانًا».

يرمقني عبد الله بنظرة كأنه يستشعر شيئًا ما. أتركهما وأنضم إلى مجموعة صبية من فصلي. يلعبون لعبة العلامة. ما

زالت قدماي متورمتين من رحلة الأمس الجبلية، فيمسكون بي على الفور. وأنا مرهق جدًّا لأمسك بهم.

تمر ثلاثة أيام أخرى. ثم العطلة الأسبوعية. ثم يبدأ أسبوع دراسي جديد ولا أثر لرحيم.

«ما زال لا شيء؟» يسأل عبد الله. نقلق جميعًا حينها.

«أظن أني أعرف ماذا حدث»، يقول أشرف. ننتظر نظريته. «أراهن أن أمه وأباه غضبا بشدة لعودته متأخرًا تلك الليلة فقررا حبسه في المنزل عقابًا له».

سألته: «حتى أنهما لا يدعانه يذهب إلى المدرسة؟». هذا ما لا أعقله.

«بالطبع»، يقول أشرف. «لقد سمعت أن أباه قاسٍ إلى حدٍّ ما».

«ماذا تعني؟» أنزعج. لماذا لا أعرف شيئًا عن والد رحيم؟

«أنت تعرف أنه كان في الحرب. وقد سمعت أنه مدمن مخدرات ـــــ مدمن سيئ حقًّا». يخبرنا أشرف بهذا بصوت نصف هامس، أفضل طريقة لقول شيء كهذا عن والد صديق.

«أين سمعت هذا؟» يسأل عبد الله.

«من أبي. ما زال أبو رحيم يخرج إلى القتال أحيانًا مع أمير الحرب عبد الخالق. وأعرف أشخاصًا يرونه وهو يسير في شارعهم. يتحدث مع نفسه. يتعثر ويسقط ولا يمكنه الرد على أحد يسأله *كيف حالك؟* أغلب الأيام».

كيف يكون أبو رحيم بهذه الحقارة ولا يذكر رحيم لي شيئًا عنه ولو مرة واحدة؟ أشعر كأن أفضل أصدقائي غريب عني. أدرك

أننـي أعـرف أن لديـه أمًّـا وأبًـا وأربـع أخـوات. سـمعته يذكـر خالتـه، ذات الحدبـة فـي ظهرهـا، التـي فكـرت فـي تحويلـه إلـى باشـابوش. مـا عـدا هـذا، لا أعـرف شـيئًا عـن حياتـه بعيـدًا عـن المدرسـة.

«سيئ حقًّا، صحيح؟» يقول عبد الله وهو يهز رأسه.

«سـيئ جـدًّا». نعـرف جميعًـا أن أشـخاصًا يدمنـون الأفيـون. يسـتخدمه البعـض للاسـترخاء أو لتسـكين الألـم ثـم يدمنونـه ولا يمكنهـم الإقـلاع عنـه. أعـرف هـذا لأن أبـي أخبرنـا بذلـك. أقسَـم لأمـي إنـه لـن يدمنـه مثـل أشـخاص رآهـم. أخبرنـا عـن أشـخاص توسـلوا وماتـوا مـن أجـل الأفيـون. قـال إنـه دعـا الله أن يعينـه، لأننـا لا يسـعنا تحمـل كلفـة مسـكنات الألـم.

أشـعر بالسـوء حقًّـا مـن أجـل رحيـم. وأفكـر أن حالـي أفضـل بـأب بسـاق وحيـدة عـن أب مدمـن. خطـر لـي أنـه مـن الغريـب حقًّـا أن أفكـر فـي هـذا وأننـي فـي الغالـب لا ينبغـي لـي قولـه.

أقـرر أننـي سـأذهب إليـه فـي بيتـه بعـد المدرسـة إن لـم يعـد خـلال هـذا الأسـبوع. أعـرف أيـن يسـكن مـع أننـي لـم أدخـل بيتـه قـط. حيـن لا يظهـر فـي اليوميـن التالييـن، أواصـل خطتـي. أتتبـع الطريـق الـذي أشـار إليـه لـي وأجـد البـاب الأخضـر الفاتـح، ويعلـوه الصـدأ علـى حوافـه. أفكـر فـي الطـرق علـى البـاب، لكننـي أخشـى بشـدة أن يفتـح لـي أبـوه. أقـف هنـاك أشـعر بحماقتـي وأتسـاءل إن كان صاحبـي علـى مسـافة أقـدام قليلـة فقـط منـي. مـاذا أتوقـع أن أسـمع؟ صياحًـا؟ بـكاء؟ ضحـكًا؟ لا أتخيـل شـيئًا.

أديـر ظهـري إلـى البـاب. إن لـم أطرقـه، فيجـب أن أنصـرف. أتـردد لأننـي أعـرف أنـه لـو كان الأمـر بالعكـس، لـكان رحيـم قـد

طرق الباب. لم يكن صديقي المفضل ليخشى شيئًا. أراهن أنه كان____

أسمع وقع خطوات فتفوتني فرصة الانصراف.

ينفتح الباب بصرير وتمسك يد بكتفي.

«من أنت؟»

إنهـا شـكاكة ومحقـة فـي ذلـك، علـى مـا أظـن. تتسـارع دقـات قلبـي.

«أوه، أنا صديق رحيم».

تغمض عينيها لثانية طويلة جدًا ـــــ تخيفني.

«ماذا تفعل هنا؟»

كان رحيـم قـد أخبرنـي عـن أخواتـه. أعـرف أسـماءهن وقليـل عـن شـخصياتهن. صـوت هـذه الفتـاة معتـدل وناضـج. ظنـي أنـي أعـرف مـن تكـون.

«اسمي عبيد. أأنت أخته؟ أأنت شهلا؟»

أعرف من تعبير وجهها أن تخميني صحيح.

«أرجوكِ، أريد أن أراه فحسب. أهـو فـي البيـت؟» تهـدأ أعصابـي قليـلًا. شـهلا أختـه الكبـرى. يجـب أن تكـون فـي فصـل نيـلا، لكـن أبـا رحيـم لا يسـمح لفتياتـه بالذهـاب إلـى المدرسـة. أذكـر أن رحيـم أخبرنـي بهـذا منـذ شـهور، قبـل بـدء عطلـة الشـتاء مباشـرة. كان يكور يديـه فـي قبضتيـن وهـو يتحـدث عـن هـذا، ولـم يكـن ذلـك بسـبب البـرد.

«لا يمكنـك رؤيـة رحيمـةـــــ أقصـد، رحيـم. لا يمكنـك رؤيتـه».

«ماذا حدث له؟ متى سيعود إلى المدرسة؟»

أسمع أصواتًا من الداخل. رجل يصيح.

«شهلا! من بالباب؟ عودي إلى هنا». لا بد أنه أبو رحيم. أتذكر ما قاله عنه عبد الله وأشرف وأتخيل وحشًا يترنح في البيت بغضب. والبندقية تتدلى من فوق كتفه.

أشعر أنني سأتقيأ.

«أنا قادمة، يا أبي. إنه أحد أطفال الجيران»، تصيح بسرعة.

تلتفت خلفها وتغمض طرفها للحظة فأرى الدمع في عينيها.

«عد إلى بيتك فحسب. ستقحم نفسك في مشكلات إن بقيت واقفًا هنا». تعود سريعًا وتغلق باب البيت. تقول ما كنت أفكر فيه بالفعل. أردت أن أبتعد عن بيت رحيم ما إن جئت. توقف الصياح، لكنني متأكد منأن شيئًا ما يحدث داخل هذا البيت. تتهدل كتفاي.

يخبرني صوت في ذهني: *اهرب.*

أريد ذلك، أفكر، *لكنني ما زلت لا أعرف ماذا حدث لرحيم؟*

ماذا قال صاحبي حين التقينا أول مرة؟

أنت تقف كأنك لست متأكدًا من وجودك. هل توجد هنا عبيد؟

أنا كذلك. أفرد ظهري.

أضع قدمي أسفل الباب لأوقف شهلا عن إغلاقه. تنظر إليّ مدهوشة وتهز رأسها. تميل إلى الأمام وتقول بهمس. «انظر، أنا أحاول مساعدتك فقط. عد إلى بيتك وانس رحيم تمامًا».

«لا يمكنني نسيان رحيم. إنه صاحبي!»

هـذه هـي الحقيقـة. إنـه مـن جعـل كل شـيء علـى مـا يـرام. كنـت سـأضيع مـن دونـه، كنـت سـأسـير فـي المدرسـة متعثـرًا وحائـرًا فيمـا يجـب أن أفعلـه أو أكونـه. أرانـي رحيـم أن كونـي باشـابوش أمـر جيـد، ربمـا أفضـل مـا حـدث لـي حتـى.

«عبيد»، تقول شهلا بتنهيدة. «أنت مثله تمامًا».

تسعدني ملاحظتها هذه.

«الأفضـل لـك أن تحـذر جيـدًا. الصبيـة أمثالـك أنـت ورحيمـة لـن يظلـوا كذلـك إلـى الأبـد. ممـا رأيتـه. يسـوء الأمـر أكثـر حتـى. يمكنـك ارتـداء بنطـال وركل البـاب بقدمـك، لكنـك مـا زلـت فتـاة. لا يمكنـك الهـرب مـن هـذا».

«لمـاذا تصريـن علـى مناداتـه رحيـم؟ إنهـا رحيمـة». لا يعجبنـي أنهـا تحدثنـي كفتـاة. أنـا متأكـد مـن أن رحيـم لـم يكـن ليقبـل بهـذا. «لـن أنصـرف قبـل أن أرى رحيـم».

«لا يمكنك رؤية رحيمة».

انفتـح البـاب منفرجًـا الآن، وأُزيحـت شـهلا جانبًـا. فجـأة صـرت أمـام رجـل متوحـش. ملابسـه مجعـدة وعينـاه الصغيرتـان الخرزيتـان فـي وجهـه غيـر الحليـق تنظـران إلـى أسـفل بوعيـد. كان عبـد اللّه وأشـرف محقيـن تمامًـا بشـأن والـد رحيـم.

زمجر قائلًا: «من أنت؟ ماذا تريد؟».

آخذ نفسًـا عميقًـا. وشـهلا واقفـة خلـف أبيهـا. تتسـع عيناهـا وتشـير ببؤبؤيهـا. تمامًـا مثـل رقصتـي التـي اعتـدت رقصهـا علـى الموسـيقى الهنديـة، تنتقـل الرسـالة عبـر العينيـن. تخبرنـي أن أنصـرف.

لـو لـم أكـن خائفًـا لـكان موقفـي قـد ازداد سـوءًا، كنـت بالتأكيـد سـأتقيأ.

تمكنت من قول: «سلام». على أمل أن تهدئ آداب التحية طباعه قليلًا. «سلام، سيدي. أنا صديق رحيم، وقد جئت فقط لأطمئن عليه لأنه لم يأتِ إلى المدرسة لأيام».

«انصرف من هنا. لن تعود رحيمة إلى المدرسة، ولن تخرج للعب. اذهب وابحث عن أصدقاء جدد أيها الصغير». عيناه حمراوان بشدة وكلماته مشوهة قليلًا. يقف موسعًا بين رجليه، كأنه قد يفقد توازنه إن لم ينتبه جيدًا.

كان أشرف قد قال: *إنه مدمن مخدرات. يتحدث معه نفسه. يترنح في سيره ولا يمكنه حتى الرد على من يسأله كيف حالك؟ أغلب الأيام.*

لم أر أحدًا يتصرف هكذا من قبل؛ ما يزيد ارتباكي. أحاول اختلاس النظر حوله، ما زلت آمل أن ألقي نظرة على رحيم، لكن الرجل أمامي ضخم بحيث لا أرى سوى نصف شهلا.

«رحيمة خطبت وستتزوج، وعليها الآن التصرف كفتاة محترمة. كفى هذا الهراء. ظل هذا البيت بلا حكم لوقت طويل. الآن انصرف من هنا ولا تعد!»

تتزوج؟ اضطربت معدتي. لا بد أنني سمعته خطأ. رحيم بالكاد يبلغ ثلاثة عشر عامًا. لا يمكن أن يتزوج!

«ألا تسمعني؟» يتقدم خطوة نحوي. «ما اسم أبيك؟ من الذي ربى الثور العاصي هذا؟ سأخبر أباك أن ابنه يطارد عروس أمير الحرب. أشك في أنك ستخرج من بيتك بعد أن يسمع بهذا!»

أسمع صوت أشرف في رأسي مجددًا.

ما زال يذهب إلى القتال أحيانًا مع أمير الحرب.

لا أريد إخباره باسم أبي. قريتنا صغيرة بحيث إن سأل أشخاصًا قليلين سيصل مباشرة إلى باب بيتنا، ولن يصعب عليه كثيرًا أن يطرقه. أتأكد الآن أنني تورطت كثيرًا.

«أنا... أنا آسف حقًّا سيدي. على أن... لم أقصد الإزعاج»، أتلعثم.

«ما اسم أبيك؟» يزمجر مرة أخرى.

تلوح شهلا بيدها بحركة سريعة. *اذهب فحسب*، تقول لي.

انصرفت في لمح البصر. تضرب قدماي أرض الشارع. أتوقع بنصف عقلي أن يطاردني أبو رحيم، لكنه لا يفعل. أركض بأسرع ما يمكنني إلى أبعد ما يمكنني. أمر بالمارة في الشارع. أكاد أُسقِط رجلًا عجوزًا يسير مع حفيده. أتوقف عن الركض فقط حين يتحرق صدري وأعجز عن المواصلة.

أسير لبقية الطريق إلى البيت ورأسي يعصف بالأفكار. الوقت بعد الغروب مباشرة. أمسى رحيم رحيمة الآن. صاحبي سيتزوج. سار كل شيء على نحو خاطئ. لم نصل إلى الشلال في الوقت المناسب. لم يمر من تحت قوس قزح، وانظر ماذا حدث.

خارج باب بيتنا، أتردد. ماذا سيحدث لي؟ قال رحيم إنه لن يتحول إلى فتاة أبدًا، وقد صدقته. أشعر بضيق صدري. وأفتقد صاحبي.

تفتح مينا الباب. تجذبني من يدي وتقربني منها.

«ها أنت ذا! ادخل وأغسل يديك ووجهك. نحن نضع العشاء».

«أترنح خلفها. في غرفة جميع الأغراض، تغرف أمي الأرز والعدس المبهّر في أطباقنا. تنظر إلى أعلى بسرعة.

«عبيد!» تهز رأسها. «أين كنت؟ بأمانة، لو لم تكن الشمس قد غربت لا أظن أنك كنت ستعود إلى البيت. هذه هي مشكلة الصبية».

أحدق فيها.

«ما خطبك يا عبيد؟ اذهب واغسل يديك ووجهك. يجب أن تتناول شيئًا قبل أن تذهب إلى النوم».

لا يمكنني تحريك نفسي. أريد أن أبوح بما عرفته لتوي، لكنني لا يمكنني التحدث عن رحيم كعروس. الأمر صادم جدًا فقط. تلاحظ أمي.

«عبيد»، تقولها ببطء. «أيوجد خطب ما؟ هل حدث شيء ما؟»

«رحيم».

«رحيم. الفتى الذي ساعدك في صنع العصا؟ هل حدث شيء له؟»

«لن.. لن.. لن يعود إلى المدرسة».

«لماذا؟» تنصت أخواتي بانتباه.

«أبوه. سيعيد رحيم... فتاة الآن». تبدو لي كلماتي مجنونة.

«أوه، فهمت». تومئ أمي. تتحدث بصوت رقيق ومريح الآن. تظن أنها تفهم حزني. «عبيد، هذا طبيعي. صديقك، لقد كبرت بما يكفي وحان الوقت لتصبح شابة. هذا قرار أسرتها».

«لكنه في الثالثة عشرة فحسب! وسوف يجعلونه_______»

«عبيد، لا تفكر في هذا. أنت تعرف جيدًا جدًا أن هذا الأمر وضع مؤقت. حين يحين الوقت، يحين الوقت. أخبرتك بهذا منذ البداية. أنا متأكدة من أنهم يفعلون الأفضل لها».

الأفضل لها؟ الزواج في سن الثالثة عشرة حتمًا ليس الأفضل لها!

أهم بمجادلتها لكنني أمنع نفسي. تنظر إليّ أمي بطريقة غريبة. أفكر في ما قد يكون في ذهنها. أتظنني «كبير بما يكفي» أيضًا؟

إنه قادم، أدرك ذلك. ما حدث لرحيم سيحدث لي أنا أيضًا.

«نيلا، أريد أن أتحدث معكِ».

تتكب أختي الكبرى على كتاب مدرسي. يوجد مصباح وحيد خافت في الغرفة. لنرى أي شيء علينا الاقتراب منه حتى نشعر بحرارة اللمبة.

«أنا أذاكر. أيمكننا التحدث فيما بعد؟»

«أرجوكِ نيلا. أريد أن أتحدث الآن».

مرت ثلاثة أيام منذ أن ذهبت إلى بيت رحيم. ثلاثة أيام منذ أن سمعت الأخبار المجنونة بأن صاحبي سيتزوج. لم يصبح شيء منطقيًا الآن بعد مرور ثلاثة أيام. ما زال جنونًا. تشعر نيلا بالتوتر في صوتي. ترفع بصرها.

«ما الأمر يا عبيد؟»

من أين أبدأ؟

«أنتِ تعرفين رحيم».

«صاحبك، بالطبع. ماذا عنه؟»

«ستعيده أسرته إلى فتاة. أقصد... ظني أنهم أعادوه بالفعل».

تنظر لي وتجيبني: «سمعت هذا. هل رأيتها منذ أن غيروها؟»

أهز رأسي.

«ربما الأمر ليس سيئًا كثيرًا»، تقول. «ربما صارت أسعد لكونها فتاة. أنا متأكدة من أن أسرتها أخبرتها بأنه وضع مؤقت في جميع الأحوال. سيكون غريبًا جدًا إن وصلتُ إلى سني وهي ما زالت فتى».

«لكن، نيلا، الأمر أسوأ من ذلك. إنهم لن يعيدوها فتاة فحسب، بل....»، يصعب جدًا قول بقية ما عليّ كشفه. أنكمش لمجرد التفكير فيه. تنتظرني نيلا أن أتكلم. «ستتزوج».

تضيق عينيها، كأنها لا تثق بما سمعته أو رأته.

«ماذا قلت؟»

«قلت إنها ستتزوج!» أهمس. لا أريد أن يسمعني والداي. نيلا الوحيدة التي يمكنني اللجوء إليها الآن.

«تتزوج؟ كزوج وزوجة متزوجين؟»

أومئ برأسي.

«لكنها في الـ»

«الثالثة عشرة»، أنهي لها جملتها. «أيمكن لوالديها فعل هذا حقًا؟»

«واو. لقد سمعت عن تزويج الفتيات الصغيرات، لكنني لم أره يحدث من قبل ـــــ أقصد لأحد أعرفه، ولفتاة في الثالثة عشرة من عمرها. هذا جنون!»

يسعدني سماعها وهي توافقني الرأي. في عالمنا، عادةً ما تجتمع الأسر لتقرر تزويج الفتيات والفتيان. لكن هذا يحدث في وقت لاحق، ليس وهم ما زالوا تلاميذ في المدرسة.

همست قائلة: «في الثالثة عشرة من عمرها. أظن أن ذلك يحدث حقًا». «كنت سأتمنى الموت، لا يمكنني حتى تخيل هذا. لماذا قد يفعلون بها هذا؟»

ألاحظ أن نيلا مصدومة بقدر صدمتي، وأن لديها أسئلة أكثر من الإجابات.

«كيف عرفت؟»

«ذهبت إلى بيتهم. تحدثت مع أختها ثم... ثم خرج أبوها. إنه وحش يا نيلا. أخافني حقًا».

«لم يكن لك أن تذهب. أنت تعرف ما يقوله الناس عنه». تغلق كتابها. أنهت محادثتنا مذاكرتها هذا المساء.

«أقالت أمي شيئًا عن إعادتك كما كنت؟»

«لا، لكنها تنظر إليّ كأنها تفكر في الأمر. ليتني لم أخبرها عن رحيم. أظن أنني نبهتها إلى الفكرة! لا أريد أن أكون فتاة، يا نيلا. فقط *لا أستطيع* أن أكون فتاة مجددًا».

«عبيد، ستعود فتاة في وقت ما. لا يمكنك الاستمرار هكذا إلى الأبد».

«لماذا لا؟ ما الأهمية القصوى للعودة؟ نحن لسنا في حاجة إلى المزيد من الفتيات في القرية أو في هذا البيت».

«عبيد، سوف يعيدونك. لقد سمعتهم يتحدثون عن هذا». تعترف لي على مضض.

«من الذي كان يتحدث؟» أنفجر فيها. «متى؟»

تهدئني وتنظر من أعلى كتفي لترى إن كان أحد قادمًا إلى الغرفة. يبدو أن خالة عزيزة -دعني أخبرك بما عليك فعله- قد جاءت في زيارة أخرى الأسبوع الماضي. سمعتها نيلا تخبر أمي بأنه حان الوقت لإعادتي إلى فتاة. أكره أنها تفكر لأمي في كل شيء. إنها ليست أمي وغير مسموح لها بالتصرف هكذا.

تزداد قناعتي الآن بأن عليّ فعل شيء ما. عليّ إيجاد طريقة لإنقاذ رحيم وإنقاذي. المشكلة الوحيدة أن الشخص الوحيد الذي

يمكنه مساعدتي في أمر بهذه الأهمية حبيسة منزلها. لا أعرف حتى كم ستظل مع والديها. أشعر برعشة تسري في ظهري للتفكير في إرسال رحيم بعيدًا عن بيت أسرتها.

لا يمكنني النوم طوال الليل، أرهف السمع ظنًا أن بإمكاني سماع والديّ وهما يتحدثان عني. لا أسمع سوى صوت شخير أبي. فهذا أكثر الأصوات التي أطمح إليها لتطمئنني.

قبل أن تشرق الشمس تمامًا، أتسلل من فراشي. بحرص لئلا أوقظ أخواتي. السماء بآلاف الألوان في وقت واحد، والشارع أمام بيتي هادئ كعادته.

أذهب إلى الفناء الخلفي. تقرقر معدتي. جعلني الأرق طوال الليل جائعة أكثر من المعتاد.

أسير في دوائر، شفتاي مزمومتان على إحباطي. أقف وأستند بظهري إلى جدار. أمد يدي اليمنى خلف ظهري لأمسك بقدمي اليسرى. آخذ نفسًا عميقًا وأنطلق. قفزة، ثم قفزتين. غبار الفناء الخلفي مثل بودرة التلك، فتنسل قدمي من بين أصابعي. تضرب قدمي الأرض. أنخر وأعاود الكرّة.

يسعدني أن رحيم ليس هنا لرؤيتي وأنا أسقط كما حدث حين قابلته أول مرة.

أقفز ثلاث قفزات وأحاول ضرب خصم متخيل إلى يميني. تُفقدني الحركة توازني فأنهار. تتمدد ذراعاي وساقاي في جميع الاتجاهات وأنا مستلقية على ظهري. كاحلي يؤلمني.

«آخ!» ماذا حدث لي؟ أرى حركة عند نافذة غرفة نوم والدي. تحركت الستائر البيضاء قليلًا فقط. أرى أبي لكنني لا أرى وجهه.

تسـري حـرارة فـي وجهـي. لا أتخيـل مـا قـد يفكـر فيـه أبـي ذو السـاق الوحيـدة وهـو يـرى ابنـه الـذي هـو ابنتـه يقفـز فـي الفنـاء بنصـف جسـده مقيـدًا خلـف ظهـره.

زوج، يا لها من كلمة قبيحة، إنها أسوأ من السُبة. لا أصدق أن لهذه الكلمة أيَّ علاقة بصاحبتي. يصعب تجاوز هذا.

أقضي وقتي في التفكير فيما قد يكون الأمر بالنسبة إليها. أنا أعرفها، وأعرف أنها ستكره أن تكون فتاة. لكن أن تكون زوجة؟ أتأكد ألا يراني أحد وأنا أفكر في هذا لأنه يغضبني بشدة لدرجة أن أصيح أو ألكم شيئًا ما. كل مرة.

بعد أسبوع، تخطر لي الفكرة.

عبد الخالق. أمير الحرب. ظللت حزينة لتفكيري فيها كفتاة وزوجة ولم أفكر في الرجل الذي ستتزوجه:

عبد الخالق.

سمعت اسم أمير الحرب حين انتقلنا إلى هذه القرية. ذكرت خالتي عزيزة اسمه بعينين متسعتين. أذكر السيارات الجيب السوداء التي رأيتها في السوق وتحذير الخباز لي حين حدقت فيها. تحدث عمي مع أبي عن قريب لهما اختفى لأيام بعد أن تشاجر مع أحد من عائلة عبد الخالق. سمعت آخرون يتحدثون عنه أيضًا، لكن بعد أن يلتفتوا حولهم ويتأكدوا أن لا أحد يسمعهم. ليس لديهم أشياء لطيفة كثيرة عن أمير الحرب.

لا أعرف ماذا يفعل أمراء الحرب حقًا، لكنني أعرف أن الرجل يحكم قريتنا. يتحرك هو ورجاله في أنحائها بسيارات الجيب ذات النوافذ القاتمة. يحمل الرجال أسلحة فوق أكتافهم ويبدون

أقسى من أي معلم أو والد صارم. لا نراهم في أحيان كثيرة، وهذا أمر جيد بالنسبة إليّ. لا أحب هدوء الشوارع وسكوت المارة في وجودهم.

يتصرف الجميع في حضورهم كفتاة صغيرة مذعورة.

معدتي مجددًا، أفكر في ما تفكر فيه رحيمة.

أخرج إلى الشارع.

«عبيد! أين تذهب؟ أريدك أن...»

يتلاشى صوت أمي وأنا أركض في الشارع. سأواجه مشكلات للمغادرة بهذا الشكل، لكن عليّ أن أفعل شيئًا ما. أركض في القرية، أمر برقعة زهور توليب تفتحت حديثًا وزقزقة عصفور كناري في قفص أمام محل. يوجد أناس كثيرون حولي. إنه صباح الجمعة، يوم ذهاب الرجال إلى صلاة الجماعة في المسجد في البلدة.

جميع الرجال.

«انتبه أيها الفتى!»

أكاد أصطدم برجل على دراجة. لا أتوقف لأعتذر حتى.

أتوقف فقط حين أصل إلى المخبز. ألهث.

«أوه، أنت؟» يقول حين يرفع بصره ويراني خالي اليدين. يسحب أرغفة خبز بيضاوية طويلة من الفرن. يخبط بمجدافه الخشبي فيسقط الخبز على صينية معدنية. «عد حين تحمل العجين. أنا لا أصنع خبزًا من الهواء».

«سيدي، لدي سؤال».

«ماذا؟»

يلقـي بأرغفـة أخـرى فـي الصينيـة. تُقبـل امـرأة ترتـدي عبـاءة زرقـاء فاتحـة تغطيهـا مـن رأسـها حتـى أخمـص قدميهـا، نحونـا. حيـن تومـئ لـه برأسـها، يمسـك بكتلـة عجيـن ويبـدأ بفردهـا.

«عبد الخالق. أين بيته؟»

يتجمد الخباز. يحدق فيّ.

«فيمَ يعنيك؟»

«أريد أن أعرف أين بيته».

«لمـاذا؟ أتبحـث عـن عمـل؟» يقـول ضاحـكًا. لكـن ليـس علـى سـؤالي.

«أريد أن أعرف».

«ليـس مـن الصعـب إيجـاده يـا بنـيّ. يسـهل أن تجـده تمامًـا كمـا يسـهل عليـه أن يجـدك». يهـز رأسـه ويضـع العجيـن فـي الفـرن. «أيعـرف أبـوك أنـك تبحـث عـن عبـد الخالـق؟»

«هـل رأيت أبـي مـن قبـل؟» أسـأله بجـرأة. «هـل جـاء إلـى هنـا مـن قبـل ليشـتري لنـا خبـزًا؟»

لا يجيب بشيء، لكنني أرى الفهم في عينيه.

«إنه ليس شخصًا يمكن لطفل البحث عنه».

«الأمر مهم»، أقول بهدوء وحزم.

يومـئ برأسـه. تمـد المـرأة الواقفـة بجانبـي يدهـا بالنقـود فيناولهـا الخبـاز صينيـة الخبـز السـاخن. تمـلأ رائحـة الخبـز السـاخن السـقيفة. تشـكره مـن خلـف النافـذة الشـبكية الصغيـرة عنـد العينيـن فـي غطـاء رأسـها. حيـن تبتعـد عـن مرمـى السـمع، يعـاود الخبـاز الانتبـاه إلـيّ.

«هناك طريق شرق المسجد. خلف الحديقة الصغيرة. أرأيته؟»

أعرف ذلك الطريق. تسلقت تلك الشجرة هناك لنزع الفرع لصنع العصا لأبي. لا بد أن هذا الطريق يقود إلى مسكنه.

«أنا لا أعرف ماذا تفعل، لكنه فكرة سيئة! لا تذهب،...»

أنطلق، يتلاشى صوته وأنا أتركه خلفي.

أمر برقعة الأشجار وأرى الشجرة التي تسلقتها. أتذكر شعوري حين نظرت إلى أسفل من ذلك الارتفاع.

لكنني نجوت.

تمتد الطريق في الاتجاه المقابل للجبال وبعيدًا عن بيتي. لا شيء آخر عليها، لا شيء سوى عبد الخالق. أهرول، أعرف أن صلاة الجمعة ستنتهي سريعًا وسيكون عبد الخالق في طريق عودته إلى البيت. بعد عشر دقائق، أرى جدرانًا طينية تلوح في الأفق. يوجد برج عالٍ داخل المسكن، مثل البيريسكوب [الناظور] فوق سطح الماء. البرج أطول من أي شيء في البلدة ما يؤكد لي أنني وجدت بيت عبد الخالق.

أتساءل إن كانت رحيمة خلف الجدران. أركض بسرعة قليلًا، لا أعرف ماذا سأفعل حين سأصل إلى الباب.

أنظر خلفي. تمتد الطريق خالية. بعيدًا عن السوق. لا أحد يعلم بوجودي هنا. تسري رعشة برد في عنقي من الخلف فألاحظ تعرقي.

الجو هادئ. لا أسمع سوى وقع خطواتي على تراب الطريق.

لا أعرف إن كان أحد ما في البرج. أشيح ببصري بعيدًا عنه.

حين أصل إلى الجدران، لا يمكنني فعل شيء سوى لمسها، فهي عالية جدًا، حتى إني لا أرى ما خلفها. أرهف السمع. صوت أطفال يلعبون وركل كرة قدم. هل تلعب صاحبتي بالداخل؟ أسمع ضحكات.

ربما الأمر ليس بالسوء الذي ظننته.

أطرق الباب قبل أن أفكر كثيرًا. أضع أذني على المعدن وأحاول تمييز الأصوات. سأميز صوت رحيمة في أي مكان.

ينفتح الباب فأقف وجهًا لوجه أمام فتى رأيته من قبل في المدرسة. أكبر سنًا مني. ألاحظ دهشته لرؤيتي.

«من أنت؟»

«أنا... أنا...»

لم أفكر في هذا جيدًا.

«أظن أن ابن عمي أرسلوه إلى هنا».

«ابن عمك؟ أي ابن عم؟»

«رحيم... » إنه حرف صغير في نهاية الاسم، لكنه يحمل فارقًا هائلًا.

يرتفع حاجباه.

«أهي ابنة عمك؟»

أومئ برأسي، أحاول أن أبدو مقنعًا.

«لا أظن أنه مسموح لها بزيارة أقاربها. هل أرسلك والداها؟»

«لا». أهز رأسي. «أردت أن أزورها فحسب قبل أن تغادر».

«أوه، فهمت!» يقول فجأة. «تريد أن ترى شكلها الآن! نعم، أراهن على ذلك». يتراجع خطوة ويلتفت حوله. «دعني أرى إن كانت...»

أستدير وأنظر إلى الطريق. أتوقع رؤية سيارات الجيب السوداء تعود إلى البيت من المسجد في أي لحظة الآن.

«هيه، ابن عمك هنا!»

ألتفت وألقي نظرة من الباب المفتوح إلى الداخل. أرى الفناء، كبيرًا جدًّا بحيث قد يبتلع كل الأفنية في شارعنا. يوجد في منتصفه بئر وأحدهم يميل إليه، يرفع دلوًا. ترتدي ثوبًا أزرقَ وغطاء رأس مسدلًا على كتفيها حتى منتصف ظهرها. تكافح لرفع الدلو وتبدو كأنها ستتركها تسقط في البئر.

حين تلتقي أعيننا، أشعر بالهواء ينطلق من صدري. أدرك في لمح البصر أن كل ما سمعته من فظائع حقيقة. إن كانت هنا، فهذا يعني أنها تزوجت أمير الحرب. ورغم استحالة قول هذا، لكنها زوجته.

تترك رحيمة الحبل، فتسقط الدلو في الماء بضجة، تقعقع بين الجدران الحجرية قبل هبوطها في القاع المظلم.

همست لي: «ماذا تفعل هنا؟».

أحدق فيها وأقول لم أستطع مقاومة نفسي. لقد نحل جسدها أكثر. وظلت تلتفت خلفها وإلى الطريق. تبدو مرعوبة. يتدلى ثوبها عليها بشكل غريب، وكتفاها منحنيتان للأمام.

«أردت أن أراك».

«لا ينبغي أن تكون هنا».

شعرها، الشيء الوحيد فيها الذي لا يبدو كفتاة، كان يغطيه الوشاح. وعيناها، وشفتاها، وعنقها ـــــ وكل ملامحها كانت رقيقة جدًا. إنها لا تشبه رحيم في شيء.

«لقد ذهبتُ إلى بيتك».

تخرج رحيمة من الباب، تغلقه خلفها لئلا يرانا أحد.

«حين لم ترجعي إلى المدرسة، قلقت عليك حقًا. حين أخبرتني أختك لم أصدقها».

قالت: «حدث كل شيء بسرعة كبيرة». طرفت عينها كي تحبس دموعها، فتبتل أهدابها.

«الفتى الذي فتح الباب ـــــ هل سيخبر أحدًا بوجودي هنا؟»

تهز رحيمة رأسها.

«إنه لا يهمه سوى اللعب أكبر قدر ممكن قبل عودة أبيه».

«هل أبوه... هو من؟»

تنظر بعيدًا. أرى وجهها يحمرّ. لم أرها هكذا من قبل. تبدو كأنها ستصرخ أو ستنفجر بالبكاء. ألمس ذراعها. ترتعش.

«لكن ماذا عن المدرسة؟ سترسب إن لم تأت! وعبد الله وأشرف ـــــ يريدان أن يرياك. أنا أحتاج إليك!»

تبدو كأنني لكمتها في بطنها.

«أرجوك عُد إلى المدرسة».

«لا أستطيع»، تهمس وتأخذ نفسًا عميقًا. «أنا أكره هذا يا عبيد. أكره ثوبي. أكره فراشي. أفتقد أخواتي وأمي. لا أريد أن أكون هنا».

أغضب لها. كيف يحدث هذا لشخص مثلها؟ أين الياشابوش الذي علمني كيف أقف دون أن أسقط؟ أريد أن أنقذها.

«يمكننا الهرب الآن»، أهمس، مع علمي أن الأمر ليس بهذه السهولة. «تعال معي. لن تعود إلى هنا أبدًا!»

«أنت لا تفهم. سيجدونني».

«لماذا تتصرف هكذا؟ لم تكن لتتركني أستسلم قط. كنت ستقترح أن نهرب!»

«عبيد!»، هي غاضبة الآن، غضبًا حزينًا. إنها تشبه صاحبي المقرب الآن. «يوجد حرس هنا. وأين سأذهب؟ إن عدت إلى البيت، سيعيدونني على الفور وسيزداد الأمر سوءًا. لا يمكنني الهرب إلى الجبال. سيجدونني».

«لماذا حدث هذا؟»

«لماذا؟ لأنني فتاة. لأن الناس يظنون أن بإمكانهم فعل ما يعن لهم بنا. يظنون أننا لا رأي لنا في ما يحدث لنا. لهذا لا أريد أن أكون فتاة. لهذا كنت سأضحي بأي شيء لأظل فتى إلى الأبد».

أتذكر رحلتنا الجبلية الشاقة. كيف أرادت أن نواصل السير حتى بعد أن زحف ثعبان على كاحلي، ورغم الظلام وخوفنا نحن الاثنتين من ألا نجد طريق العودة. كأن أشباحًا أكبر كانت تطاردها. أفهم هذا الآن.

«كنت تعرفين أن هذا سيحدث».

لم تقل شيئًا.

«لماذا لم تخبريني؟»

«كيف أخبرك.... بهذا؟» صوتها ضئيل. تمسح دمعة بظهر يدها وتتشنج. لم تعد تبدو طويلة كما أتذكرها. لا أصدق كم تغيرت خلال أيام قليلة فحسب.

أعض شفتي السفلى لمنعها من الارتعاش.

«ماذا سأفعل من دونك؟» فكرة أنانية، لكنني، دونها، تائهة حقًا.

«لو كان لدي يوم واحد آخر في الخارج»، تقول وهي تنظر خلفي، إلى العالم البعيد عن منا لها تمامًا. «لو كان لدي يوم واحد آخر في الخارج، كنت سأقضي كل دقيقة فيه في البحث عن طريقة لئلا ينتهي بي الأمر هنا أبدًا».

إنه صاحبي، يحدثني بهذه الطريقة الخاصة بنا فقط. النظرة في عينيها، الكلمات المتوارية، طريقتها في الإشارة برأسها مائلًا إلى مكان ما خلف ظهري. شفرة لا يفهمها أحد غيرنا، ولا حتى عبد الله ولا أختها شهلا. ثمة أمور في رحيمة لا يفهمها أحد سواي.

«هذا ما سأفعله يا عبيد»، تقول وهي تعبث بطيات ثوبها، تخرج قبعة الويزردز وتناولها لي. مطوية نصفين، والحافة مثنية في الاتجاه الخاطئ. «خذ هذه».

«قبعة الساحر؟»

تومئ برأسها.

«لماذا؟ أنت في حاجة إليها أكثر مني!»

«ظللت تحدق في هذه القبعة منذ أن قابلتك أول يوم». تبتسم. «ربما حان الوقت لتجلب لك أنت بعض الحظ. وأنت تعرفني. لن أمكث هنا إلى الأبد. سأخبرك بشيء يا عبيد. هؤلاء الناس ليسوا أذكياء تمامًا. سأجد طريقة للتغلب عليهم، حتى وإن لم يكن اليوم».

آخذ القبعة، مع أنني لست متأكدة من هذا. يبدو غريبًا أن آخذ منها شيئًا عزيزًا عليها، خاصة في وقت كهذا.

ألمس الخيوط الحمراء وأفكر في إعادتها إليها حين أسمع طنينًا بعيدًا.

نلتفت نحن الاثنتان ونرى سحابة غبار على الطريق. في مكان ما في سحابة الغبار توجد السيارات الجيب السوداء وفي مكان ما في السيارات يوجد رجل يدعو رحيمة زوجته.

«عبيد، يجب أن تنصرف الآن!» تشد طرحتها على وجهها وتمسك بمقبض الباب. «انصرف عبيد! أرجوك!»

تبدو خائفة جدًا إلى حد يجعلني أرتعش. تعود إلى الداخل. تغلق الباب ولا أرى سوى عين واحدة واسعة.

تقترب السيارات. أميز بقعة سوداء في سحابة الغبار.

«لكن ماذا أفعل من دونك يا رحيم؟ ماذا أفعل؟»

«افعل كل شيء»، تقول وهي تغلق الباب الثقيل. تصيح مجددًا بصوت أعلى. «افعل كل شيء عبيد! **افعل كل شيء!**»

الفصل الرابع والعشرون

تتجه نحوي ثلاث سيارات جيب. أنظر حولي. لا يوجد شيء هنا سوى بيت عبد الخالق. لا توجد بيوت أخرى، ولا محلات ولا أشجار للاختباء خلفها. ليس سوى الطريق.

أبتعد عن الباب. ذهبت صاحبتي. في الغالب عادت مذعورة إلى الداخل لئلا يخمن زوجها أنها خرجت. لا أعرف كيف قد يكون العيش في هذا البيت، لكنني يمكنني التخمين تقريبًا من تعبير وجهها.

لا شيء خلف البيت. كأن الطريق تنتهي عنده. إن رأى حراسه فتى يسير في البراح، سينتبهون لي ويوقفونني. آخذ نفسًا عميقًا وأقرر أنه لا يوجد سوى طريق واحد.

أرتدي قبعة الساحر على رأسي وأشد الحافة المثنية لتغطي عيني.

أعود أدراجي في الطريق، نحو السيارات، بإطاراتها الكبيرة ونوافذها القاتمة. أرتدي سروالي وقميصي الطويل. واسعان عليّ قليلًا لكنهما يجعلاني أبدو كرجل صغير. تقترب السيارات الجيب حتى يرونني، حتى وأنا لا أراهم. أواصل سيري، أثبت عينيّ أمامي مباشرة كأنني لا أخشى شيئًا.

تمرق السيارة الأولى بي دون أن تتوقف. تدور في الطريق حول البيت وتختفي عن النظر. تبطئ الثانية وهي تمر بي. لو مددت ذراعي، سيمكنني لمسها. أشعر بالغبار في أنفي وحلقي.

تتقدم السيارة، ببطء كاف ليمكنني الالتفات والنظر إلى النافذة القاتمة. أتساءل إن كان الجالس فيها ينظر إليّ من خلف الزجاج. زوج صاحبتي.

تمر السيارة الثانية فأظن أنني في أمان. ربما قرروا أن فتى صغيرًا لا يُقلق في شيء. ربما ظنوا أنني ضللت طريقي ووصلت إلى هذه الناحية بالخطأ. لكنهم لو سألوني أي سؤال، سيعرفون أنني أكذب.

تتوقف السيارة الثانية على مسافة ياردات قليلة من البيت. يمكنني سماع محركها خلفي.

لا أدهش حين تمر السيارة الثالثة بجانبي. أواصل السير، لكن السيارة تتوقف فجأة فتهوي معدتي. أتوقف عن السير ليس لأنني أريد التحدث مع أحد، بل لأنني أظن أن الموقف سيزداد سوءًا إن لم أتوقف.

لا أعرف ماذا أفعل بعيني. يبدو أن زمنًا طويلًا قد مر قبل أن يهبط الزجاج القاتم.

«ماذا تفعل هنا؟»

أنظر إلى الرجل الملتحي الذي يحدثني. يرتدي طاقية صوف صغيرة، وأرى العنق الأسود الطويل لبندقية بين ركبتيه.

«آسف».

«بالطبع أنت كذلك. لكنني أسألك ماذا تفعل هنا».

يوجد رجلان آخران في المقعد الخلفي. يميلان إلى النافذة ليلقيا نظرة أفضل عليّ. لا يمكنني رؤية وجهيهما بوضوح، ولا أحاول حقًا، بل أحاول إبقاء عينيّ على حذائي.

«هل ستجيب؟»

سمعت شيئًا من قبل عن أمراء الحرب، إنهم لا يرتدون سوى ملابس سوداء. الرجال في السيارة يرتدون ملابس بيج، لذلك أخمن أنهم حرسه. في الغالب عبد الخالق في السيارة الثانية، التي تنتظر أمام البيت، ليرى ماذا عرف مَن في السيارة الثالثة عن الفتى الغامض الذي يتجول حول بيته.

قلت: «أنا عائد إلى بيتي الآن». كان صوتي خفيضًا وحلقي جافًا من الغبار والتوتر.

ينظر الرجل إلى الحارسين الآخرين في السيارة ويهز رأسه. يفتح الباب ويترجل.

أتوقع بنصف ذهني أن تخرج صديقتي من البيت، وتصيح في هؤلاء الرجال أن يدعوني وتنقذني مما سيحدث. لكنها لا تخرج. لا تستطيع.

«أيها الفتى الصغير، ماذا تفعل هنا؟ إنه سؤال بسيط».

إنه أطول مني بكثير. يداي متعرقتان وترتعشان. أريد أن أصرخ وأركض، لكنني لن أبتعد كثيرًا. أفكر في البكاء وتوسل العفو. كيف لفتاة في العاشرة من عمرها ترتدي ملابس فتى أن تواجه حرس أمير حرب؟ ظللت باشابوش لأقل من ستة أشهر. ليس وقتًا طويلًا بما يكفي لأكون شجاعًا مثل رحيم!

يجب أن أنهار، لكن هذا لا يحدث.

قلت: «لقد أُرسِلت إلى هنا في مهمة». «ويجب أن أعتذر لأنني قمت بشيء ما غير لائق بالمرة».

«أي مهمة؟» يتثنى أنفه، كأنه يحاول تشمم الحقيقة.

«أسرتي ممتنة بشدة للعظيم عبد الخالق لمساعدته في حمايتنا. نحن ممنونون جدًا. أعدت أمي كعك ماء الورد هذا الصباح، وطلب مني أبي إحضاره إلى هنا. ظللت أسير لساعات، على الأقل، أظن أنه مرت ساعات. لم أعرف كم يبعد البيت عن السوق».

«أين هو إذن؟» يسأل عابسًا.

«أين ماذا؟»

«الكعك. أين الكعك؟»

«أوه، كنت سأصل إلى هذا. أتعرف، لقد استيقظتْ أمي قبل الفجر وظلت تعجن بقبضتيها الاثنتين. شممنا رائحته في الفرن وتوسلنا إليها أن تمنحنا قطعة صغيرة فقط، لكنها رفضت أن تمنح أبي حتى. إنه يحب كعكها، لذلك غضب كثيرًا حين قالت لا، لا. لا______»

«عن ماذا تتحدث؟»

«الكعك. لهذا كنت أعتذر. تعجلت أمي بشدة في دفعي للخروج من البيت هذا الصباح إلى حد أن نسيت أن تعد لي إفطارًا. حين جئت إلى هنا، طرقت الباب مرات عدة، فلم يجبني أحد، لذلك لم أرغب في إزعاج أحد، فقعدت وفكرت أن أنتظر».

يغمغم أحد الرجال في السيارة بإحباط.

«هل علينا الاستماع إلى هذا الهراء؟»

«من أبوك يا ولد؟»

«أبي؟» لا أريد أن أجيب هذا السؤال.

«نعم، أبوك! أريد أن أعرف من الملوم على وجودك!»

«إنـه الرجـل الأشـد غضبًـا فـي البلـدة. هـذا أبـي. تعالـوا معـي إلـى البيت وسـترون بأنفسـكم. أوه، أنـا لا أريـد أن أخبـره بمـا حـدث للكعـك حقًـا!»

«عن مـاذا تتحـدث؟ أجبنـي مباشـرة وإلا سـأطرحك أرضًـا!» يقـول وهـو يرفـع يـده بتهديـد.

«أكلته!» أقول بسـرعة.

«ماذا؟»

«أكلت الكعك».

يتنهد ويحك جبهته بيده.

«إنـه خطـأ فـادح وأنـا آسـف جدًّا، لكننـي لـم أستطع منـع نفسـي. كنـت علـى وشـك أن أسـقط مغشـيًا علـى بعـد أن قطعـت كل تلـك المسـافة إلـى هنـا دون أن أتنـاول شيئًا قبـل الخـروج، مـا يعـد خطـأ كبيـرًا، بالطبـع...»

يستدير الرجل إلى الرجلين في السيارة. «أهذا حقيقي؟»

يقلـب أحدهمـا عينيـه، ويسـتند الآخـر بظهـره فـي جلسـته فيختفـي عـن النظر.

«والآن ظنـي أننـي سـأتقيأ. ظلـت معدتـي تؤلمنـي بشـدة منـذ الأمـس». أشـبك يـديّ الاثنتيـن علـى بطنـي وأنقـل وزنـي علـى قدمـيّ. «أتعـرف هـذا الشـعور بـأن شـيئًا مـا لا يريـد أن يظـل فـي الداخـل لكنـك لسـت متأكـدًا مـن أيـن سـيخرج؟»

«هذا الولد أبله. لنذهب».

لا أتوقف. أواصل.

«لا أعـرف مـاذا سـأقول لوالـديّ. سـيقتلانني حيـن يعرفـان مـا

فعلته. قد يكون هذا الكعك آخر شيء أتناوله. أوه، أنت لا تعرف أمي. هذه نهايتي!»

أهز رأسي كأنني أخاف من في البيت وليس من في تلك السيارات الجيب السوداء. أضع يدي في خصري وأميل إلى الأمام كأنني سأتقيأ على الأرض.

«آخر مرة فعلت فيها هذا أرسلتني أمي إلى بيت عمي. قالت إنها لا تعرف ماذا تفعل بي إن رأتني. سيجن جنونها هذه المرة. أظن أن عليّ التوجه إلى السوق وشراء كعك من المخبز وإحضاره إلى هنا. على الأقل سأخبرها بأنني أوصلت الكعك، وسيكون ذلك صدقًا. لكنه ليس الشيء نفسه، مع ذلك. كعك أمي أفضل كثيرًا من كعك المخبز. فهو ليس جافًا أو——»

«قل لهذا الولد أن يخرس! إنه يثير جنوني».

«إنه يثير جوعي».

«جوعك؟ أأنت مجنون؟»

«ربما كانت الخميرة سيئة»، أقول بألم وأنا أمسك بطني.

«هل يضعون الخميرة في الكعك؟ أظن أن لدي حساسية من الخميرة».

أسمع صوت وشيش وطقطقة. أحد الرجلين في جيبه جهاز لاسلكي. ينبعث منه صوت متقطع. لا أسمع ماذا يقول، لكنني أسمع أحد الرجلين يجيبه.

«نحن في طريقنا الآن. مجرد ولد مغفل. يقول إنه أكل كعكًا كان عليه توصيله. إن لم نتركه الآن سيطلق أحدنا عليه النار».

يجب أن أبلل سروالي الآن، لكنني، بمعجزة، لا أفعل.

يعود الصوت المتقطع من الجهاز اللا سلكي. أسكت هذه المرة لأسمعه.

«كعك؟ أخبر ذا الأذنين الكبيرتين أن يحتفظ بكعكه. من لديه وقت لهذا الهراء؟»

يلوح الرجل ويعاود ركوب السيارة. أومئ برأسي وأبدو آسفة ما أمكنني. أسير مبتعدة، أركل الأرض كأنني لست متحمسة للعودة إلى البيت. تنطلق السيارة وحين أستدير لأنظر خلفي، يكونون قد اختفوا جميعًا خلف أسوار البيت.

أنطلق في الركض. أريد أن أبتعد بقدر الإمكان.

أفكر وأنا أركض في جنون إفلاتي من قبضة حرس أمير حرب بالثرثرة. أنا، الفتاة الصغيرة في ملابس فتى.... كيف فعلت هذا؟ كان الأمر كأنني لم أكن نفسي، كأنني كنت شخصًا آخر!

كان... كان...

ثم تخطر لي الفكرة. أن تلمس يدي حافة قبعة رحيم، التي تحيط برأسي بإحكام فلا تسقط وأنا أركض.

كان سحرًا.

لن أخلعها.

كنت أعرف أن هذه القبعة بها شيء ما خاص. هي ما جعلت رحيم على ما كان عليه، طويلًا وقويًا. ما لم أكن أعرفه أنها قد تمنحني بعضًا من هذا أنا أيضًا.

أضحك، حتى وإن كنت وحدي. لا يمكنني كتم الضحك. كلما تذكرت ما قلته لهؤلاء الحرس، نظراتهم المحبَطة وخوفهم من أن أتقيأ على سيارتهم ـــــ أو عليهم.

صديقتي محقة. هؤلاء الناس ليسوا أذكياء تمامًا.

«علامَ تضحك؟»

ألتفت. يحمر وجهي. مينا خلفي بيديها في خصرها. تبدو فضولية.

«لا شيء».

لا تصدقني. أعدل القبعة على رأسي وأرفع حقيبتي المدرسية الصفراء المرسوم على جيبها الأمامي شاحنة خضراء. أعلقها على كتفيّ.

«أتخفي شيئًا ما؟» تسألني وهي تضيق عينيها. مينا لا تستسلم، هذا طبعها.

«لماذا تظنين هذا؟» أسألها كأن سؤالها سخيف ـــــ وهو كذلك إلى حدٍّ ما. أنا فتاة في ملابس فتى. أنا دائمًا أخفي شيئًا ما.

أمر بها وأعرف أنها تتابعني بعينيها. لن تترك الأمر، ولا أريد أن تعرف بزيارتي بيت أمير الحرب منذ أربعة أيام. وإن أخبرتها، لا أظنها ستكتم السر طويلًا. لن يتركني أبواي أخرج من هذا البيت إن عرفا بما فعلته. يجب أن أظل باردة.

«تأخرنا يا مينا. علينا الذهاب».

مسيرتنا إلى المدرسة هادئة فيما عدا ثرثرة عاليا عن ثوب رأته على إحدى الفتيات في المدرسة».

«ثوب جميل جدًا جدًا جدًا! لم أر في حياتي ثوبًا مثله. كان يجب أن تري ألوانه. الأزرق مختلف ـــــ ليس كبيض الطيور ولا كحقيبة يد أمي القديمة. كان كأزرق الملكة. أتمنى جدًا جدًا جدًا أن أحظى بواحد مثله!» أداء عاليا مبالغ فيه اليوم. سيساعد هذا في تحويل الانتباه عني.

تستمع مينا لعاليا، لكنها تُبقي عينيها عليّ.

ما زالت فضولية.

قد يتعلم حرس أمير الحرب من أختي شيئًا أو اثنين.

«أراكما بعد المدرسة»، أقول وألوح لهما حين نصل إلى فناء المدرسة. أشعر بالراحة لوجودي في الفصل، لجلوسي بجانب صبية لا يعرفون حقيقتي كما تعرفها أخواتي.

«أنت ترتدي القبعة!»

يلاحظ عبد الله على الفور. خرجنا لتونا من المدرسة، ويقف عبد الله وأشرف أمامي. توجد فجوة كبيرة في صداقتنا بغياب رحيم. كنا أصدقاء حقًا بسبب رحيم فقط. من دونه ليس لدينا الكثير لنتحدث عنه. أعود إلى الشعور بأنني طفل صغير مع صبية كبار.

«نعم».

«كيف حصلت عليها؟» يسأل أشرف.

لدى الجميع أسئلة كثيرة لي اليوم.

«أعطاني إياها».

«متى؟» يقترب عبد الله مني.

«الجمعة الماضية».

«كيف؟»

أستمتع بذهولهما إلى حد ما. نعم، كان رحيم صديقهما قبل أن يكون صديقي. نعم، هما فتيان، حقيقيان. نعم، أكبر مني سنًا بثلاث أو أربع سنوات، أطول مني، أكبر مني. ونعم، أنا من واتته الشجاعة بالفعل للذهاب للبحث عن صديقنا المشترك ومحاولة فعل شيء لها.

«ذهبت إليه».

«أنت لا تعني...»

«نعم، ذهبت إلى بيته».

تتسع عينا عبد الله. يجلس أشرف على صخرة كبيرة.

«أنت لست جادًا».

«أنا كذلك بالفعل. أردت أن أتحدث معه».

«الأمر حقيقي إذن؟» يرفع أشرف بصره وهو يسألني.

«أي أمر؟»

يتبادل هو وعبد الله النظر. يسألاني عن شيء لا أرغب في التحدث عنه. لا أريد أن أتحدث عن رحيم كفتاة، ولا كعروس بالطبع. ومع أنني أعرف أنهما يتجاهلان حقيقة أن رحيم

باشابوش لكنني لست متأكدة مما يعرفانه عني. لم يقولا كلمة واحدة عن الأمر في جميع الأحوال.

«عن رحيم. إنه لم يكن حقًا ــــــــ أنّ أباه سيزوجه لأمير الحرب؟»

كانت صاحبتي لتصرخ وتركل إن سمعتنا نتحدث عنها هكذا.

«هذا ليس من شأني»، هذه أفضل إجابة لدي الآن، لكنها ليست جيدة بما يكفي.

يهز عبد الله رأسه.

«نحن أصدقاؤه. أظن أنه من شأنك للغاية ومن شأننا نحن أيضًا»، يقول بهدوء.

«لن نقول شيئًا»، يضيف أشرف. «إن كان هذا ما يُقلقك».

إنهما يعرفان إذن.

أومئ برأسي. ليست لدى الشجاعة للاعتراف بأي شيء عن نفسي بصوت عالٍ. يصعب التحول من حفظك سرًا ما طوال اليوم إلى التحدث عنه صراحة بعد المدرسة.

«أين ذهبت؟»

«ذهبت إلى بيته. كل شيء حقيقي، وقد كان بشعًا. زوّجها أبوها بأمير الحرب».

«كيف حالها؟» عبد الله مهتم حقًا. وأعرف أنه يتمنى لو كان هو من ذهب للبحث عنها وليس أنا. أشعر باختلاف ما الآن. لست مجرد ولد صغير أحضرته رحيمة. إنهما يتحدثان معي بوصفي واحدًا منهم.

«بخير لكن ليس حقًا. لا أعرف. لم أتحدث معها مطولًا. أوقفني الحرس هناك. ظننت أنهم سيقتلونني».

«حرس؟ مستحيل!»

أخبرهما بكل شيء عن الحرس وكيف هددتهم بالتقيؤ عند أقدامهم. أخبرتهما عن أسلحتهم وسيارات الجيب السوداء.

«لماذا لا تهرب؟»

«لا أعرف. أخبرتها بهذا لكنها قالت إنهم سيجدونها».

«كنت سأهرب لو كنت مكانها». يقول أشرف بكبرياء.

«يسهل قول هذا وأنت هنا»، يجيبه عبد الله بحدة على الفور ثم يعاود الانتباه إليّ. «ماذا عنك يا عبيد؟ ماذا ستفعل الآن؟»

يظهر فجأة شخص آخر. خرجت مينا لتوها من خلف شجرة التوت في فناء المدرسة. سمعت كل كلمة من محادثتنا وترمقني بنظرة انتقامية وقاسية جدًا حتى كادت تسقطني أرضا.

«نعم، عبيد. ماذا ستفعل الآن؟» تقول مينا.

«مينا، لا تقولي شيئًا لأمي.... أرجوكِ!»

«أنا لا أصدق أنك ذهبت إلى بيت أمير الحرب! أجننت؟ وتستفز حرسه هكذا؟ لقد جننت حقًا وستحبسك أمي حتمًا».

«مينا، أرجوكِ!»

نسير إلى البيت. لا تتفوه عاليا بشيء. هذه دراما مبالغ فيها لا تروقها.

«عبيد، هذا خطِر حقًا. لا يمكنك فعل أشياء كهذه!»

«أعرف يا مينا. لن أعود إلى هناك. أعدك! فقط لا تقولي شيئًا لأمي العزيزة. لا داعي لتوريطي في مشكلات، أليس كذلك؟ لقد انتهى كل شيء، أقسم بذلك».

«أهكذا حصلت على قبعتك؟ أنا أتذكر صاحبك وهو يرتديها».

ألمس حافة القبعة بيدي الاثنتين بقلق.

«انسي الأمر يا مينا».

«هذا خطِر جدًا!» تقول عاليا، ذقنها يرتعش. تبدو كأنها ستجهش بالبكاء.

تهز مينا رأسها.

«لا أصدق هذا. هل فعلوا هذا بصديقتك حقًا؟ أمير الحرب؟ إنها صغيرة جدًا!»

«أعرف. هذا فظيع حقًا».

تتوقف مينا فجأة وتواجهني. تتشج عاليا وتمسح دموعها بظهر يدها. ننتظر أن تتحدث.

«أتظن أن الشيء نفسه قد يحدث معك يا عبيد؟ لأنه لن يحدث. والدانا لن يفعلا بك شيئًا كهذا أبدًا».

«كيف تعرفين؟ هل سألتهما من قبل؟»

أظن أنه أحد الأمور التي ظلت تقلقني سرًا. إن كان والدا رحيمة قد زوجاها، فقد يفعل والداي بي الشيء نفسه.

«أهذا ما كنت تفكر فيه؟ أأنت مجنون؟ عبيد، إنهما لن يفعلا هذا بك أو بأي واحدة منا. نيلا في السادسة عشرة من عمرها، وقد أخبراها أنهما حتى لا يمكنهما التفكير في زواجها. نحن جميعًا أصغر من نيلا، خاصة أنت».

تبدو متأكدة مما تقوله حقًا، وحججها مقنعة، لكن ربما لأنها لم تر ما رأيته. مع ذلك، أريد أن أصدقها. أن أصدق أن أمي وأبي لن يلقيا بي في بيت رجل ما ويتوقعان مني العيش هناك ــــــــ لأنني لا أعرف إن كنت سأستطيع. ظللت أفكر في رحيمة كثيرًا. كثيرًا جدًا ربما.

«عبيد»، تقول مينا بصوت أرق مما كان منذ لحظات. «ربما عليك التحدث مع أمي عن هذا. هل أخبرتها بما حدث لصديقك؟»

«لا».

«لماذا؟»

أعقد ذراعي على صدري. لا أريدها أن تملي عليّ ما أفعله. لا يمكنها فهم الموقف كما أفهمه. إنها فتاة فحسب.

تتأفف مينا ويداها في خصرها.

«عبيد، لماذا؟» تكرر السؤال، غاضبة. ليس خطئي أنها منزعجة، بل خطؤها هي أنها لا تترك شيئًا.

«سنتأخر»، أقول وأسير في الطريق. تسير عاليا خلفي.

أتوقف حين ألاحظ مينا خلفي مباشرة. أرمقها بنظرة جانبية فأرى شفتيها مزمومتين بحدة ونظرة جادة على وجهها. يغرق قلبي حين أدرك ماذا ستفعل. ألتفت إليها وأمسكها من كتفيها.

«مينا، لا يمكنك». أحاول أن أبدو آمرة، لكن العبارة تخرج بتوسل.

«لا يمكنني ماذا؟» تجيبني ببطء وتعمد. تضيق عينيها وهي تنظر إليّ، تتحداني أن أواصل.

«أرجوك لا تخبري أمي بهذا. لا يجب أن يعرفا. سيقلقان بشدة. أرجوك، مينا».

تعض عاليا شفتيها.

«ربما عبيد محق يا مينا»، تقول بهدوء. «تعرفين ماذا سيحدث لها لو أخبرتِها. أتريدين أن تفعلي هذا حقًّا؟»

يتهدل وجه مينا، مثل بالون شكّته سن إبرة. تخبط بقدمها الأرض.

«حسنًا، عبيد. لكنك ستقسم على ألا تعود إلى هناك. وأنك لن تفعل شيئًا بهذا الجنون، وإلا سأخبر أمي بكل شيء دون أدنى قدر من الندم، أيًّا كان ما سيحدث».

لو كانت فتى، لكنا تصافحنا باليد. لكنني أومئ برأسي لها فقط. تعلق ذراعها في ذراعي. تسير عاليا إلى جانب مينا الآخر، وتعلقان مرفقيهما أيضًا. ونسير إلى البيت هكذا. كأنني أختهما تقريبًا.

الفصل السابع والعشرون

عرفت منذ أن غادرت بيت عبد الخالق ماذا عليّ أن أفعل تحديدًا. سأفعل ما كانت رحيمة ستفعله لو كانت قد ظلت رحيم.

لو كان لدي يوم واحد آخر بالخارج لقضيت كل دقيقة منه في البحث عن طريقة لضمان ألا ينتهي بي الأمر هنا.

مر أكثر من أسبوعين منذ أن ذهبت إلى هناك، وكل يوم منها كان مضيعة للوقت. يجب أن أجد الشلال. لدي قبعة الساحر. وبقدر ما أكره التفكير في أنها ليست مع رحيمة، بقدر امتناني الشديد لأنها منحتها لي. هذا ما يفعله الأصدقاء المقربون حقًا.

تضع أمي لي قطعة خبز مدهونة بالزبدة ومرشوشًا عليها حبات سكر خشن.

«تناول هذا»، تقول. «اشتريت زبدة طازجة بالأمس. بدأ أبوك يتلقى معاشًا بسبب إصابته في أثناء العمل. سيكون لدينا دخل إلى حدٍّ ما. ليس بالكثير، لكننا على الأقل لن نعتمد على العائلة كليًّا».

تقلق أمي كثيرًا. تقلق بشأن كفاية تدفئتنا في الشتاء، بشأن درجاتنا في المدرسة، بشأن ما ستعده من طعام وماذا ستفعل مع عائلة أبي. تقلق أكثر بكثير مما يمكنني استيعابه. لم أظن أن لديها طبعًا، لكن هذا طبعها، تقلق.

لذلك تجعلها هذه الأخبار في مزاج رائق بشكل ملحوظ هذا الصباح. لن تكف عن قلقها بشأن النقود، بل ستقلق أقل فحسب.

أتناول الخبز بكوب شاي باللبن. لو عرفت أمي ماذا سأفعل اليوم، لنزعت الخبز والزبدة الطازجة من فمي وحبستني في غرفتي. لكنها لا تعرف، لذلك تعد لي قطعة خبز أخرى حين ترى كيف تناولت الأولى بسرعة. أشعر بالسوء لأنني أخفي شيئًا عنها، لكنه لصالحها.

«سأتسكع مع الصبية يا أمي العزيزة»، أقول بطريقة طبيعية ما أمكنني. «توجد مباراة كرة قدم مهمة اليوم».

«أوه، حقًا؟»، تقول وهي تربت على بطنها المستدير. «يبدو هذا مرحًا كبيرًا».

لا أصدق أنني لم ألحظ بطنها لوقت طويل. يبدو من المستحيل إخفاؤه. أحدق في التكوين وأتساءل إن كان فتى أم فتاة. أتمنى أن يكون فتى، لصالحه، مع علمي أن أبوي سيسعدان بابن كثيرًا إلى حد أنهما قد ينسيا اسمي كفتى.

يجب أن أذهب حقًا.

«نعم». أمسح فمي بظهر يدي وأنهض قبل أن تسألني عن أي شيء. أو قبل أن أتفوه بكذبة أخرى. أقبّل جبينها، فتبتسم. «أراك لاحقًا».

مينا في الفناء بالخارج. ترفع بصرها لي حين أخرج. تتسارع دقات قلبي.

«أراك خلال وقت قصير مينا»، تفتح فمها كأنها تهم بسؤالي عن شيء ما ثم تغلقه فجأة. أظن أنها تفكر في أنها لو لم تسأل، فلن تكون مسؤولة عن أي شيء غبي قد أفعله.

سـوف أذهـب إلـى الشـلال. مـلأت زجاجـة بلاسـتيك مجعـدة بالمـاء، إذ تذكـرت كيـف كنـت ظمآنـة فـي الرحلـة الفائتـة. أريـد أن أنطلق مبكرًا لأصل، ومـا زال يوجـد مـا يكفـي مـن الضـوء لرؤيـة أي شـيء قـد يتسـلل مـن تحـت قدمـي.

أمـر بالبيـوت فـي شـارعنا وأسـمع الأصـوات الصغيـرة مـن خلـف جدرانهـا الطينيـة. أمـر بفتيـة يلعبـون كـرة قـدم فـي السـاحة الخاليـة عنـد ناصيـة شـارعنا. أرغـب فـي الانضمـام إليهـم لكننـي أذكـر نفسـي بمهمتـي. أمـر بالعجـوز الـذي يبيـع البطاطـس، والفجـل، والبصـل الأحمـر علـى عربـة خشـبية. أصـل إلـى طـرف البلـدة وأرى الفضـاء الأجـدب الممتـد بينهـا وبيـن والجبـال التـي تعزلنـا عـن بقيـة العالـم.

أبدأ السير.

بالأمـس، قضيـت بعـض الوقـت مـع أبـي. حشـرتُ فـي الهـراء الـذي تحدثـت عنـه أسـئلة قليلـة كان يجـب أن أسـألها منـذ وقـت طويـل. عرفـت ثلاثـة أشـياء:

بالنظـر مـن عنـد طـرف البلـدة، تتخـذ سلسـلة الجبـال شـكلًا مميـزًا. توجـد ثلاثـة جبـال تبـدو معًـا كجمـل ذي سـنامين بـارك علـى الأرض.

الجبـل الـذي عليـه الشـلال هـو رأس الجمـل. والشـلال علـى منحـدر عنـد أذنـه اليمنـى مباشـرة. العشـب والأشـجار علامـة علـى وجـود المـاء.

حيـن أراهـا، يصيـر الأمـر أوضـح شـيء فـي العالـم. كأننـي أسـمع صـوت أبـي تقريبًـا. يوجـد جبـلان كبيـران. سـنامان. ثـم يوجـد وادٍ تتحـول فيـه التربـة مـن بنيـة وجافـة إلـى بعـض رقـع مـن الأخضـر. إلـى

يمين الوادي، يوجد جبل أصغر بقمة مسطحة قليلاً. توجد قمة مسننة واحدة هناك لا بد أنها أذن الجمل اليمنى. أدقق النظر في الإطار العام للجبل وأتخيل ثقبي الأنف والعين على المنحدر، كأنني أنظر إلى جانب وجه الجمل. توجد أشجار وأعشاب خضراء مصفرة على القمة المسننة، تبدو كأنها شعيرات نابتة.

ها هو.

أضحك. أتمنى لو كان رحيم معي ليرى هذا.

أبدأ الهرولة، أعرف أن اليوم سيمر بشكل أسرع من المعتاد وأمامي مسافة كبيرة لقطعها.

أصل إلى رأس الجمل عند الظهيرة، بالتخمين من موقع الشمس أعلى رأسي. أحاول ألا أفكر في تعرقي وإرهاقي. الأفضل أن أفكر في مدى اقترابي من الشلال. أرى الدرب الذي سرت فيه أنا ورحيم منذ أسابيع وأشعر بالأسف علينا حين أدرك كم كنا بعيدين. لم يكن لدينا أدنى فرصة.

آخذ رشفة ماء أخرى وأذكر نفسي أن أقتصد في الماء حتى أصل إلى الشلال. إنها بداية الصيف لكن الجو دافئ بما يكفي لأتعرق بعد الخروج بعدة دقائق. فيما أميل برأسي إلى الخلف لأجرع الماء، أشعر بدغدغة على قدمي.

أصرخ وأقفز. ليس الثعبان الذي توقعت رؤيته. أتراجع خطوات أخرى وعيناي مثبتتان على الوحش البني الذهبي يقف على مسافة أقدام مني. لا يتحرك ـــــ كأنه هو الآخر لا يعرف ماذا يفعل. مواجهة صامتة بيني وبين العقرب القاتلة التي كان بمقدورها لدغي.

«لا تتجرأ على الاقتراب مني» أتمتم. لا أحد حولي، لكنني أشعر جيدًا حين أتحدث بصوت عالٍ. أدرك أنني سأشعر أفضل لو صحت فيها حتى. «أنا أحذرك. سأقتلك!»

يبدو كأنها تعي تحذيري فتحذرني بدورها. يتكور ذيلها الخرزي لأعلى من خلفها، تهيأت واستعدت لتحويلي إلى كتلة باكية. لم تلدغني عقرب من قبل لكننا تربينا على الخوف منها. سمعت أن لدغة واحدة من ذيلها قد تجعل مصارعًا يبكي وينادي أمه. تقف بيني وبين رأس الجمل.

ألتقط حجرًا وأرميها به. تأخذ خطوة صغيرة جدًا للخلف. يمكنني السير من حولها، لكنني أريدها أن تخافني. أريدها أن تعرف أنه لا يمكنها الزحف على قدمي ببساطة. أريد أن أكون مَن يسيطر هنا.

«ابتعدي عن طريقي!» أصرخ وأرمي ثلاثة حجارة أخرى نحوها. الأول بعيدًا، والثاني أقرب، ثم الثالث يضرب ذيلها. تزحف بعيدًا بأسرع مما أتوقعه من عقرب، فأشعر بالانقباض حول صدري يهدأ قليلًا.

كانت عقرب عند قدميّ لكنها لم تلدغني. قدمي لا تتورم كبالون بنفسجي. ما زلت صامدة.

أخلع قبعة الساحر، أمسح العرق عن جبيني، وأعتمرها مجددًا.

شكرًا يا رحيم. ظني أنك أنقذت حياتي لتوك.

أواصل سيري.

تمر ساعة أخرى قبل أن أصل إلى رأس الجمل. أجد الممر المؤدي إلى أنفه ثم أنعطف يسارًا، أدور حول صخرة أذن الجمل.

أشق طريقي صعودًا، تتحول الحجارة الصغيرة إلى حجارة كبيرة وصخور فيما أصعد. أبقي عيني على الأرض أمامي، تحسبًا للعقارب والثعابين وأي شيء آخر يجب أن أحذره. بين الحين والآخر، أنظر إلى أعلى لأرى كم قطعت.

وحينها أسمعها همهمة هادئة. تخطر لي الثعابين فأتجمد، أمسح الأرض بعيني بحثًا عن ذيل مشؤوم أو عينين خرزيتين. لا أرى شيئًا، لكن الهمهمة مستمرة. أواصل السير، بقلبي يضج. الصوت يثير أعصابي.

تعلو الهمهمة. يزداد انحدار الدرب. وتزداد الشمس سخونة.

لن أعود. سأصل. أتخيل محادثتي التالية مع رحيمة، رغم علمي أنها لن تحدث.

لقد فعلتها يا رحيمة. تسلقت الطريق كلها إلى رأس الجمل وحول أذنه. لا، لم أكن خائفة. ولا بأدنى قدر.

ثم عرفت. بدأت الهمهمة تبدو مبللة وحرة. أتسلق أعلى كتلة صخور وأنظر إلى الجانب الآخر لأرى أروع منظر رأيته في حياتي.

تتدفق مياه صافية باردة من الجانب الآخر من القمة. تنسال على منحدر صخري وتصب في بركة بالأسفل. جميل وخطر. مزيج مثير. أشعر بالتعب والظمأ فأفتح فمي لالتقاط الهواء الندي بلساني.

حين أفتح عيني، أراها.

أقواس قزح. يوجد قليل منها، تطفو أعلى المياه المنسابة. تحلق في الهواء.

أتسلق إلى حيث توجد صخرة خلف الماء يمكنني الوقوف عليها. من هناك، سيكون بمقدوري لمس قوس قزح. أتحرك بحرص، خطوة حذرة تلو الأخرى. أختبر كل حجر لأتأكد من ثباته تحت قدمي. المنحدر خطر. كانت النجاة من العقرب أسهل.

ينزلق حجر من تحت قدمي فأشهق. أحفر يدي في الجدار. أسير بجانبي ويهدأ روعي حين تتسع الصخرة. أمد يدي اليمنى وألمس تيار المياه. يدغدغ أطراف أصابعي، الماء بارد حتى في هذا اليوم الحار. أملأ راحتي، بمياه فوارة ومنعشة وأصبها في فمي.

قوس قزح على مسافة خطوة مني.

آخذ نفسًا عميقًا وأمد قدمي اليمنى، ثم اليسرى. أنا تحت التيار. قوس قزح أعلى رأسي. جسدي كله مبلل بالماء البارد. بخطوة واحدة أخرى، سأكون على الجانب الآخر من قوس قزح وتيار المياه. أراه يضرب سطح البركة بالأسفل برغوة صاخبة.

كان يجب أن تري كل شيء يا رحيمة. الماء وأقواس قزح، انسياب الشلال من أعلى الجبل ـــــ إنه أجمل مكان. كانت الصخور ضخمة والمنحدر مائلاً جدًا. لم أر في حياتي مكانًا هادئًا ومخيفًا في الوقت نفسه هكذا.

أصيح. يتردد صدى صوتي الصبياني بين الصخور وينزلق من فتحة أذن الجمل. ليس صوت الفتاة التي ترتدي ملابس فتى. بل أقوى. صوت منيع. تتكور يداي في قبضتين، وحين يلمس الرذاذ البارد وجهي تسري موجة كهربية في جسدي كله.

في هذا المكان السري الخفي، حدث شيء ما سحري.

«أين كنت؟ لماذا أنت مبلل؟ ستمرض لسيرك، هكذا! هل فقدت عقلك؟»

تغضب أمي. ليس الغضب الذي يزول سريعًا، بل الغضب الذي يصب على رؤوس أخواتي أيضًا، ما يعني أن البيت كله سيغضب مني. الغضب الذي يجعلها لا تعرف كيف تعاقبني. الغضب الذي لا أريد رؤيته أبدًا، وقد توقعت هذا. لماذا فعلت ذلك إذن؟

لأنني كان عليّ ذلك.

عرفت أنها ستغضب لأنني استغرقت وقتًا طويلًا جدًا في العودة. كانت ملابسي تقطر ماءً حين تركت الشلال. عدت أصعد الدرب الجبلي إلى فسحة صغيرة وسقطت في النوم برأسي على صخرة. حين استيقظت. كانت الشمس قد هبطت في السماء، وكنت ما زلت بعيدًا عن بيتي بمسافة طويلة.

«أنا آسف جدًا أمي العزيزة». أطرق برأسي، لكن صوتي يظل ثابتًا. في العادة حين أواجه مشكلات، أتوتر كثيرًا حتى أكاد أبكي. لا تسيل الدموع من عينيّ، بل تدمعان فقط. لكن ليس هذه المرة.

«آسف؟ ماذا يعني هذا؟ سألتك أين كنت وتقول إنك آسف؟»

خرجت أخواتي من غرفتهن. أراهن في الطرقة المعتمة، خائفات في لباس نومهن. في الغالب يسعدهن أنني جئت كي لا تصيح فيهن أمي بسببي. أتمنى ألا يوقظ صياحها أبي. لا أريده

أن يغضب مني. حين يغضب مني أشعر بالسوء حقًا، كأنني فعلت شيئًا يؤذيه أكثر مما تعرض له من أذى بالفعل.

«كنت بالخارج ألعب، وسقطت في النوم».

«سقطت في النوم؟ أهذا هو كل شيء؟»

عيناها واسعتان. تضع يدًا في خصرها والأخرى على جبينها. فمها نصف مفتوح. ربما لن تغضب كثيرًا هكذا؟ ربما ستدهش فحسب.

«نعم، أمي العزيزة. ركضنا كثيرًا في لعب الكرة، ولا بد أنني شعرت بالإرهاق أكثر مما ظننت. كنت سأجلس لدقائق قليلة فحسب. لا أعرف ماذا حدث. حين استيقظتُ دُهشت حقًا حين رأيت الظلام قد حل».

«سقطتُ في النوم»، تكرر بصوت خفيض. لم أسمع صوت تقلب أبي بعد. يبدو أن سمعه قد ساء بشكل أكثر مما ظننت. يمكنه النوم في أثناء العاصفة. في هذه اللحظة، أمتن لهذا.

«نعم، أعدك أنني لن أفعل هذا مرة أخرى أبدًا. سأغير ملابسي وأذهب للنوم الآن».

«هل فقدت عقلك؟» تقول بصوت عالٍ. تهوي معدتي. سيهب أبي من فراشه. في أي لحظة الآن.

«انظر إلى هذه الملابس!» يداها على قميصي. بنطالي الجينز قاتم ومبلل. لو كانت الشمس قد ظلت موجودة لكانت ملابسي قد حظيت بفرصة لتجف قبل عودتي.

«أمي!» أقول فجأة وأنا أبتعد عن يديها. صوتي أعمق مما أتذكره. أظن أن هذا جزء من عملية التغيير. أظن أن شيئًا ما

يحدث ببطء، لأنني ما زلت أشعر أن لدي جسد فتاة. «قلت إنني آسف. سأذهب لتغيير ملابسي. دعي الجميع يذهب للنوم».

«ماذا حدث لك؟ لقد غبت لساعات. كنت سأجن من القلق، ظننتك لقيت حتفك، والآن تظهر مبللًا وتتصرف مثل... مثل... مثل أمير مدلل؟»

لست مدللًا بكل تأكيد، أريد أن أخبرها بهذا.

«ستخبرني على الفور أين كنت وإلا ستقضي السنوات القادمة دون أن ترى ضوء النهار». إنها تعني كل كلمة قالتها. يهتز ضوء المصباح بتوتر______ لا يشك في تهديدها.

آخذ نفسًا عميقًا. لماذا لا أخبرها؟ قد أخبرها بأنني أنهيت ما بدأته هي. جعلتني منذ ستة أشهر مضت باشابوش، لكنني خلال هذه المدة جعلت نفسي فتى. لن تقلق لأنها لم تنجب ابنًا. يمكنني البدء بفعل ما اعتاد أبي فعله لنا وهو بساقيه، ككسب المال أو إصلاح كرسي مكسور. كل ما يقوله الناس عن أسرتنا التي ليس لديها فتى لن يكون حقيقيًا بعد الآن. كلما فكرت في الأمر ازدادت رغبتي في إخبارها. ستكون ممتنة جدًا!

«ذهبت إلى الشلال أعلى الجبل».

تنهار على مرتبة على الأرض. يداها على بطنها.

«الجبل؟ بربك يا عبيد، ماذا كنت تفعل على الجبل؟»

«هل حاولتِ من قبل الوقوف أمام قوس قزح؟ لا، ليس الوقوف أمامه فحسب بل مد يدك للمسه؟ إنه أمر غريب جدًا. إنه دائمًا بعيد قليلا. تقتربين وتقتربين ثم بطريقة ما يصير إلى يسارك بعد أن كان أمامك أو يختفي لكن لا يمكنك الوقوف أمامه أبدًا والمرور من تحته مباشرة».

أخواتي في غرفة جميع الأغراض الآن. هذا كلام لا يمكنهن تفويته.

«لكنني وجدت الشلال. وجدته وحدي! أعني، أخبرني أبي أين كان، لكنني ذهبت إلى هناك وحدي».

يرتسم وجه عاليا بتعبير غريب كأنني أتحدث لغة لا تفهمها. ثم أرفع بصري وأرى، في ضوء القمر، أن نيلا ومينا لديهما النظرة نفسها على وجهيهما. أشعر بالفجوة بيني وبين أخواتي تتسع. إنهن فتيات. لا يمكنهن تخيل كيف فعلت هذا. أبتسم قليلًا رغمًا عني. تلك النظرة على وجوههن، تلك المسافة بيني وبينهن، دليل على نجاح خطتي.

«مررت من تحت قوس قزح، أمي العزيزة. ألم تلاحظي؟ ألا ترين أن ثمة شيئًا مختلفًا فيّ؟ كانت الصخور زلقة والمياه باردة، لكن قوس قزح كان هناك_____ كدت ألمسه».

«عبيد، لقد أخبرتك بأهمية أن تخبرني بالحقيقة دائمًا».

«هذه هي الحقيقة!»

تميل إلى الأمام، تضغط صدغيها بأصابعها. غاضبة، لكن ليس كما كانت منذ دقائق.

«أرجوك أخبرني بحقيقة أفضل من هذه».

«حقيقة أفضل؟ هذا ما أردته أليس كذلك؟ ألم ترغبي في جعلي فتى؟ أمي، هذه هي الطريقة الوحيدة التي نعرفها لتحقيق هذا. علينا المرور من تحت قوس قزح لنتغير إلى الأبد».

قلت علينا. كأن رحيم لم يختفِ من حياتي. كأنها كانت هناك معي، تخطو بحذر على الصخور وتشعر بالرذاذ البارد لمياه الجبل.

ناحت أمي: «عبيد، عبيد، عبيد». «هذه أسطورة. قصة نحكيها للأطفال، ليست حقيقة. لماذا تصدق هذه الأشياء؟ لا شيء يحدث حين تمر من تحت قوس قزح.

أشتعل غضبًا منها وأتساءل إن كانت تتذكر أنها هي من تؤكد دائمًا أهمية الحقيقة. يجب أن تتذكر. قالت هذا منذ ثوانٍ قليلة.

أخواتي واجمات لكن لأسباب مختلفة. تعبث نيلا بخيط خيالي في تنورتها. تشعر بمسؤوليتها تجاه كل ما يحدث، لأنهم ظلوا يؤكدون عليها هذا بوصفها الأخت الكبرى. أراهن أن مينا تشعر بالذنب لإخفائها عن أمي أنني ذهبت إلى بيت أمير الحرب وتنتظر أن تتفجر تلك القنبلة في أي لحظة. عاليا على وشك البكاء لأنها لا تتحمل رؤيتي أواجه مشكلات أو رؤية أمي غاضبة.

لا أريدهن أن يبدون كما يبدون. كلما أسرعت في إثبات وجهة نظري، سنعود جميعًا إلى الوضع العادي سريعًا.

«كيف تعرفين يا أمي؟ هل مررت من تحت قوس قزح من قبل؟ لماذا سيظل الجميع يرددون الأسطورة إن لم يكن بها قدر ولو قليل من الحقيقة؟ إلى جانب ذلك، أنا أعرف أن الأمر أفلح. أشعر بذلك بالفعل».

تنظر إليّ كأن رأسًا آخر نما لي.

«عبيد، الشيء الوحيد المختلف فيك أنك مبتل وفي الغالب ستستيقظ غدًا بالتهاب رئوي. ظننا أن شيئًا ما فظيعًا حدث لك. ألديك أي فكرة كم كنا قلقات؟» تميل إلى الخلف وتهز رأسها. «ماذا فعلت؟ لم أظن أنك ستفكر في.... ظننتك تعرف أن ارتداء ملابس الفتية تلك لوقت فحسب. ليس المقصود به أن يكون إلى الأبد. لماذا تريد أن تكون فتى إلى الأبد؟»

«لمـاذا تريديـن منـي أن أكـون فتـى الآن فقـط؟ إن كان جيـدًا أن أكون فتـى الآن، ألـن يكـون مـن الأفضـل أن أكـون كذلـك إلـى الأبـد؟»

لا تقـول شـيئًا، لكنهـا تعـض شـفتيها بحـدة حتـى تـكاد تخفيهمـا تمامًـا، فأعـرف بذلـك أننـي قلـت شيئًا مـا أثـر فيهـا. لكننـي لا أعـرف إن كان جيـدًا أم سيئًا.

«أمـي، هـل يمكننـا الذهـاب إلـى النـوم فحسـب؟ أعـدك أننـي لـن أذهـب إلـى أي مـكان دون أن أخبـرك مجـددًا».

«نذهـب إلـى النـوم فحسـب؟ كأنَّ شـيئًا لـم يحـدث؟» صوتهـا عـالٍ ومرتعـش. أنظـر نحـو الطرقـة وأتوقـع صيـاح أبـي علينـا لإيقاظـه. أنـا متأكـدة مـن أن أمـي لـم تخبـره بتأخـري. صـارت تخفـي عنـه أشـياء مؤخـرًا ـــــ الأشـياء التـي قـد تزعجـه.

«أمـي، أرجـوكِ». أهمـس علـى أمـل أن تفهـم مـا أعنيـه وتخفـض صوتهـا. «أنـا آسـف بشـدة حقًّـا».

حينهـا ينفتـح البـاب الأمامـي فجـأة. أنظـر إلـى أعلـى ويسـقط فكـي ببلاهـة. يصيبنـي الذعـر والدهشـة والارتبـاك فـي وقـت واحـد. كيـف يحـدث هـذا؟ أطـرف بعينـي وأفكـر، لجـزء مـن الثانيـة، أن الليلـة بالتأكيـد ليلـة سـحرية، وأن أمـي حمقـاء إن لـم تـر هـذا. هنـاك، بسـاق واحـدة علـى الأرض وعقبـه علـى العصـا الخشـبية الـذي صنعتهـا لـه، يقـف أبـي منقطـع النفـس ويتعـرق.

الفصل التاسع والعشرون

«عبيد!» ينطق اسمي في زمجرة واهنة. بعد أن يقوله مباشرة يمسح جبينه بظهر يده.

أحدق فيه فقط، أراقبه يحفظ توازنه على عكازه. كدت أنسى كم هو طويل.

«أبي، أنت تستخدمه! أنت تسير!» أقفز وأصفق. «إنه يعمل، أليس كذلك؟ إلى أين وصلت به؟»

«عبيد!» تصيح أمي فجأة. «انظر كيف أتعبت أباك، وتواصل ثرثرتك كأن...»

«أمي»، أتأفف وأنا أفكر كم يصعب توضيح الأشياء للأبوين أحيانًا. «أترينه؟ إنه يسير».

يتقدم أبي خطوات قليلة في الغرفة. يصل إلى الوسادة الأرضية فتنهض نيلا. يترك العصا تسقط على الأرض ويستند بيده إلى ذراع نيلا. ينزلق على الجدار ويجلس بساقه وعقبها ممدين أمامه.

«اسأله إلى أين ذهب»، تقول أمي بجرأة. «هيّا اسأل ابنك أين كان اليوم».

«عبيد، لقد بحثت عنك في الخارج لساعات. كانت أمك مقتنعة أنك مت! ألديك أي فكرة عما جعلتنا نعانيه؟»

ساعات؟ ساعات؟ هذا لا يصدق! أقفز من قدم لأخرى فرحًا. ليتني أستطيع إخبار رحيمة بهذا. ستسعد كثيرًا!

«ظللت في الخارج لساعات؟ أبي العزيز، هذا رائع! أكانت الحافة جيدة؟ لم أكن متأكدًا إن كنت قد وضعت ما يكفي من القماش لتبطينه، لكن ظني أنك لو_______»

«تبطين؟ كيف تتحدث عن التبطين؟ ألم تسمع ما قلته؟» يصطدم رأسه بالحائط.

تصب له أمي كوب ماء من إبريق معدني. تهز رأسها.

«عبيد، هل جننت؟»

«الطول مناسب تمامًا. لا أصدق هذا. أتعرف، فعلنا هذا دون قياس. تخيلتك فقط وأنت واقف بجانبي وخمنت...»

ينظر والداي أحدهما إلى الآخر. تطرق أخواتي برؤوسهن بحركة واحدة متزامنة. أتوقف عن القفز من قدم لأخرى حين ألاحظ نظرهن إليَّ من أسفل جفون مسدلة. يخطر لي أنني في مشكلة أكبر مما أتوقع بالفعل.

أتجمد. يسود التوتر الغرفة. تضطرب معدتي، كأنها كان يجب أن تفعل هذا منذ وقت طويل ربما.

«عبيد، يجب أن ننهي هذا»، تقول أمي بجهامة. «لقد زاد هذا عن الحد».

تتحبس أنفاسي. ننهي ماذا؟

يفرك أبي فخذه ويعبس.

«الآن. هذه اللحظة، يا عبيدة. بلا نقاش، ولا أسئلة. لا شكوى».

عبيدة! أستغرق لحظة لأدرك أنها تحدثني. لا يمكن أن تكون جادة. بالكاد أذكر هذا الاسم الآن.

«أمي...» أقول، لكنها تقاطعني بنظرة حادة.

تريد أن تنهض، تبذل جهدًا مضنيًا. كبر بطنها خلال الشهر الأخير. لم يعد النهوض حركة سريعة وصار يتضمن كثيرًا من جهد الركبتين والمرفقين واللهاث.

«سأنفذ هذا الآن على الفور. لتدخلي إلى هنا وتتحدثين عن أقواس قزح وأساطير مجنونة و... و... والتبطين! من بين كل شيء... التبطين!» تندفع أمي في الطرقة بالسرعة الممكنة لحركة جسدين في جسد واحد. وفي حين يجب أن أتساءل عمَّ ستفعله، أجدني عالقة في التفكير في علاقة هذا الجنين بكل ما يحدث.

تحدق أخواتي في الطرقة القصيرة. ثلاثة أعناق فضولية تمتد خلفها. عينا أبي مغمضتان. بذل اليوم مجهود سنوات. بسببي، وأشعر بالسوء تقريبًا لهذا. مع ذلك، يجب أن أعترف، أن جزءًا مني سعيد لأنني جعلته يخرج من البيت.

أرفض الوقوف ساكنة. أتبع أمي. قالت إنني ليس مسموحا لي بالأسئلة ولا بالشكوى، ولم تقل إنني لا يمكنني تتبعها لأرى ماذا ستفعل.

تدخل إلى غرفتنا أنا وأخواتي. تزيح المراتب على الأرض جانبًا وتفتح كرتونة في ركن من الغرفة. تخرج كيسًا أخضر بلاستيكيًا ظننت أننا لن نفتحه مجددًا أبدًا.

«أمي، لا!»

تلتفت إليّ وتحدجني بنظرة.

«يجب أن تسمعي كلامي يا عبيدة». تمد يدها في الكيس وتخرج أحد فساتيني الثلاثة. كنا قد حزمناها واحتفظنا بها

بعيدًا منذ أن حولتني باشابوش. إنها جادة بشكل مميت. «أنا أفعل هذا لمصلحتك. نحن نحبك، ومسؤوليتنا نحن أن نفعل ما في صالحك. سترتدين فستانًا غدًا صباحًا».

لون الفستان أزرق غامق كئيب ببقع باهتة عمل فيها مسحوق الغسيل أكثر مما كان عليه ومسح اللون تمامًا. مجعد وفي الغالب قصير جدًا، لكنني لا أجرؤ على قول هذا لأمي في هذه اللحظة. تأخذ ملابس عبيد، البنطال الذي أرتديه للعب الغورساي، والقمصان التي أرتديها في فصل الصبية. تكورها في كرة سميكة وتدسها تحت ذراعها.

«ظننتك بإمكانك البقاء هكذا لوقت أطول، لكن من الواضح أنك لا يمكنك التعامل مع الأمر. ستراك بقية العائلة بفستان بدءًا من الغد، وكل... هذا... سيكون خلفنا. ستتصرفين باحترام وتعودين إلى البيت مباشرة بعد المدرسة. ستبقين مع أخواتك في الظهيرة وليس في أي مكان آخر. يا ربي! ليتني يمكنني إطالة شعرك على الفور!»

تفرد الفستان على مرتبة نومي وترفع حاجبًا بنظرة ذات مغزى.

«لا شيء آخر لمناقشته يا عبيد. لا، ليس عبيد!» تدرك خطأها، لكن بعد فوات الأوان. تحدق فيّ مشدوهة، هدأت فورة غضبها. تحاول استدراك الخطأ لكنها لا يمكنها صنع هذا برقة. أحدق فيها. أشعر بذقني يرتعش. يجادلها الصوت الصغير بداخلي.

«لا تجيبي على هذا الاسم»

لم أجب.

«أنتِ عبيدة».

أتخبرينني أم تخبرين نفسك؟

«أعرف أنكِ غاضبة، لكنني ظننتك... ظننتك ميتة. أنت لا تعرفين ماذا فعلتِ بي.

بإمكاني قول الشيء نفسه.

«انسي أشياء الصبية هذه. الأمر كله انتهى الآن. غدًا، ستكونين شخصًا جديدًا. أو ستعودين إلى نفسك الماضية. أيًا كان الأمر».

تستدير لتخرج من الغرفة.

أستسلم أخيرًا. أنفجر في بكاء فتيات محرج.

الفصل الثلاثون

أشعر بضيق وانقباض في صدري. يتسلل الضوء من شق رفيع حيث طين السقف لا يلتقي جيدًا مع طين الجدار. شق رفيع لا يمر منه قلم رصاص، لكن الضوء يتسلل منه رفيعًا ويبدو كأنه ينتشر في الغرفة. أحدق في ذلك الضوء وأتساءل إن كان ما أشعر به بسبب مروري من تحت قوس قزح أم بسبب قرار أبويّ أن يقلبا عالمي رأسًا على عقب للمرة الثانية.

أمر بيدي على ذراعي وساقي. لدي قبعة الساحر تحت رأسي وأشعر بحافتها تضغط مؤخرة عنقي. أشعر بامتنان لأن أمي لم تر القبعة تحت بطانيتي، كانت ستخفيها مع البناطيل والقمصان.

«أأنت نائمة؟» تهمس عاليا. تنام إلى يساري. أتقلب على جانبي فأواجهها. الغرفة مظلمة، لكنني أرى وجهها في خيط الضوء.

«لا»، أجيبها همسًا أيضًا.

هدأ الأمر الآن. يمكننا سماع شخير أبي من خلف الجدار الرفيع. هذا ليس سبب أرقي. إنه الصوت الذي ظللت أنام عليه طوال حياتي.

«أأنتِ بخير؟»

لا أعرف كيف أجيب عن هذا السؤال. يجب أن أكون كذلك. لم تلدغني عقرب. لم أسقط من أعلى صخرة زلقة. لم يتبرأ مني أبواي. لكنني لا أعرف من أنا أيضًا. أريد أن أكون فتى حقًا،

لكن أمي قالت إن هذا لن يحدث لأن أقواس قزح ليس لديها تلك القوة بالفعل. رفضتُ تصديقها وتوقعت أنني سأبدأ بالشعور بمزيد من التغييرات قريبًا.

ذهبتِ إلى المرحاض الخارجي قبل أن آوي إلى النوم. قضيت حاجتي وأنا مقرفصة، كالعادة.

«أسمعتِني؟ أأنت بخير؟»

«أظن هذا».

«إنهما غاضبان بشدة»، تقول. «لم أر أمي غاضبة هكذا من قبل. كادت تنزع شعرها من رأسها. أتظنين أنها ستظل غاضبة إلى الأبد؟»

تمتمتُ بكلمة «لا». أتنهد أمام قدرة عاليا على جعل الأمور تبدو أسوأ مما هي عليه بالفعل. «لم تكن غاضبة إلى هذا الحد. كما أنني أنا من يجب أن يغضب بشدة، وليست هي».

«أنتِ؟»

«نعم، أنا. أنا من يريدون تحويله إلى فتاة».

«أنتِ لم تشتكي قط من كونك فتاة حين كنت فتاة. ولا مرة واحدة».

«أنتِ لا تفهمين. لا تعرفين كيف هو الأمر. أن تكوني فتى أفضل بقدر كبير جدًا».

لا أريد أن أبدو متعالية في حديثي معها، لكنني لا أعرف طريقة أخرى لإخبارها بما أشعر به.

«أحيانًا، عبيد أو عبيدة أو أيًا كان من تظنين نفسك، أحيانًا تكونين عنيدة حقًا». هذه ليست عاليا. هذه نيلا. لا بد أن همسنا قد أيقظها.

«لست كذلك». أدافع عن نفسي.

«بلى، أنتِ كذلك»، تهمس مينا بغضب. «لا تتوقفي لتفكري في أن ما تفعلينه قد يؤثر فينا ـــ خاصة حين تكونين في البيت».

نحن الأربع مستيقظات.

«أنت لا تفهمين الأمر فحسب. لا واحدة منكن تفهم».

«لماذا تقولين هذا؟» لا أعرف إن كانت هذه نيلا أم مينا. «أتظنين حقًّا أنك مختلفة عنا؟ أنت تعرفين أنه مجرد بنطال. هذا هو كل شيء. سيطول شعرك. لم يتغير فيكِ شيء آخر. ظللت عبيدة طوال الوقت. ظللت دائمًا فتاة وستظلين دائمًا كذلك».

هذه نيلا. حتى وهي تهمس، تبدو أشبه بأم عنها كابنة. أشعر بوجهي يحمر، أدرك أنني لم أكن أفكر في مشاعر أخواتي. كان كل هذا بشأني. أتذكر طريقتهن في النظر إليّ في بداية تلك الليلة، جلسن جانبًا يراقبن. في الغالب قضين ساعات في قلق والديّ وصياحهما. أفكر في ما قالته مينا توًّا. لا بد أن أمي سألتهن إن كن يعرفن أين ذهبت. تخيلت مينا تتساءل إن كنت قد ذهبت إلى بيت أمير الحرب مجددًا وتجادل نفسها إن كان عليها إخبار والدينا بالأمر أم لا.

قلت لهن: «أنا آسفة». لم تسر الأمور بشكل عادل معهن منذ أن صرت عبيد. عرفت هذا منذ وقت لكنني تجاهلته لأنني استطعت تجاهله. لا يبدو اعتذاري كافيًا، حتى لي، لكنني أعنيه حقًّا. «أنا آسفة حقًّا. أنا فقط لا أعرف ماذا أفعل».

«ليس عليكِ فعل شيء»، توضح لي نيلا. «فقط عودي إلى ما كنت عليه».

«لكن ألا تظنين...» يسعدني حقًا أن الغرفة مظلمة وأنا أسأل هذا السؤال. «لقد قطعت كل تلك المسافة إلى الجبل ومررت من تحت قوس قزح. لم يكن القوس الأكبر، لكنه كان هناك وقد فعلتها. ألا تظنين أن هذا سيفعل شيئًا ما؟»

قالت مينا: «بأمانة؟» «ربما فعل بالفعل.. كنت عبيد حين ذهبت إلى هناك. تقول الأسطورة إنه يغير الفتيان إلى فتيات والفتيات إلى فتيان. ربما غيرك من فتى إلى فتاة إذن».

أرقد على ظهري بعينين تتسعان. لم أفكر في هذا الاحتمال. هل جلبت هذا لنفسي؟

«مينا، عن ماذا تتحدثين؟ الناس لا يتغيرون هكذا. أقواس قزح لا يمكنها تغيير... تغيير أعضاء جسدك». نيلا حريصة في كلماتها. لا واحدة منا تريد الخوض في الفوارق الحقيقية بين الفتية والفتيات.

«لكن هل تهم أعضاء الجسد حقًا؟» تسأل مينا. «أأنت فتى لأن لديك جسدَ فتى أم لأن بمقدورك فعل ما يفعله الفتى؟»

« الجسد بالطبع». تجيب نيلا بحنق.

«لا أعرف»، تجيب عاليا. «عبيدة ليس لديها جسد فتى، لكنها كانت فتى لأنها فعلت كل ما يفعله الفتى. حتى إنها صنعت تلك العصا التي استخدمها أبي اليوم. كانت رائعة حقًا، بالمناسبة».

«لم تكن فتى حقًا. كانت تتظاهر بهذا فحسب».

تبدو نيلا محبطة بشدة منا. أظن أن هذا جزء من كونها الأخت الكبرى.

«قال الجميع إنها فتى»، تضيف عاليا. «وعاملها الجميع على أنها فتى. وكذلك، والأهم من هذا، كانت تأكل كفتى. لا أتذكر أنني نلت فخذ دجاجة واحدة منذ أن صارت عبيد».

كتمت نيلا ومينا ضحكهما.

«أهذا ما يقلقك؟ قطعة دجاج؟»

«إن فخذ الدجاجة السفلى هي أفضل قطعة فيها»، تقول عاليا بصوت يملؤه الأسى.

يسود الصمت الغرفة. في الغالب تفكر أخواتي في أفخاذ الدجاج السفلى، لكنني أفكر في ما قلنه.

أكنت فتى حقًّا أم كنت أتصرف كذلك فقط؟ يوجد فارق كبير. نظرية مينا عن تغيير قوس قزح لي من فتى إلى فتاة ليست مجنونة تمامًا، حتى وإن كانت تجعل رأسي يدور قليلًا حين أفكر فيها.

بدأ الأمر يتضح مع ذلك. العودة كفتاة أمر واقع. زال ضيق صدري. لم أعد أشعر بغرابة. لا أشعر إلا بالحزن لأن الأمور لن تعود كما كانت حين كنت أنا ورحيم معًا. أمد يدي إلى القبعة وأرتديها. أفتقد صاحبتي بشدة الليلة.

الفصل الحادي والثلاثون

أقول بهدوء من الممر: «أمي؟». أشرق الصبح بالكاد وما زالت أخواتي نائمات في الغرفة. تسللت منها دون أن أوقظهن. لم ينمن جيدًا الليلة الماضية، بسببي.

تمنيت لو كان بإمكاني دس يدي في غرفة جميع الأغراض لأستشعر مزاج أمي. لا أعرف إن كانت ما زالت غاضبة بقدر ما كانت ليلة أمس أم أن الساعات التي مرت منذ ذلك الحين قد حولتها من الأحمر القاني إلى الأصفر الصيفي. التفكير في الأزرق البارد مستحيل.

«مم؟» ترفع بصرها إليّ. منكبة على صينية بلاستيك عليها أرز نيء. تنقّيه بأطراف أصابعها، تبحث عن أدق حصاة مرت مع حبات الأرز في أثناء التعبئة. دائمًا ما تفعل هذا، منذ أن انخلعت سن مينا حين ضغطت حصاة منذ سنوات. يخطر لي أن أمي تقضي ساعات في فعل أشياء كهذه من أجلنا، تحاول جعل الأمر على أتم وجه ما أمكنها. إن كانت قد قررت تحويلي إلى فتاة مجددًا، فذلك ليس لأنها تريد تكديري.

«أنا آسفة بشأن الأمس يا أمي العزيزة».

تلمع عيناها وتطلق تنهيدة ناعمة. هذا كل ما أحتاج إليه. أندفع نحوها وأدفن وجهي في الفراغ الناعم بين كتفها وصدرها. أشعر بذراعيها تحيطانني.

«أنا أيضًا آسفة».

أريد أن أسألها عن سبب أسفها لكنني أخاف. تضع صينية الأرز جانبًا وتجذبني إليها. ليس بسهولة، لكنني بشكل ما أو بآخر أقعد على فخذها رغم بطنها البارز.

السماء في الخارج برتقالية داكنة وصفراء. ما زالت الشمس خلف الجبال.

أشعر بشيء ما يلكزني في جانبي وأنا في حضن أمي. حين أشعر به مرة ثانية، أتراجع.

«ما هذا؟»

تبتسم أمي وتضع يدًا على بطنها.

«أشعرت به؟ إنه الجنين يتحرك».

أتوجد إجابة أشد جنونًا من هذا؟ الجنين في عمق بطنها ورغم هذا تدبر أن يدفعني.

«حقًا؟ أيفعل هذا دائمًا؟»

تومئ برأسها ثم تميل بي جانبًا بطريقة تخبرني أنها لم تعد غاضبة بالأحمر القاني. وليست حتى بالأصفر الصيفي.

«هل سيأتي قريبًا؟»

تزم شفتيها وتفكر قليلًا.

فقالت: «أظن أنه ما زال أمامنا ستة أو سبعة أسابيع أخرى». «وحينها ستتغير الأشياء قليلًا. الرضّع لا ينامون ليلًا كثيرًا، ويبكون. وهم صغار حقًا وفي حاجة إلى كثير من العناية. لكنه قد يكون جيدًا لأبيك أن يوجد رضيع في البيت».

«في حال كان فتى فحسب».

تتراجع أمي إلى الخلف وتنظر إليّ.

«ماذا قلت؟»

«في حال كان فتى فحسب»، أكرر. «إن كان فتاة، لا أظن أنكِ أو أبي ستسعدان حقًا. هذا هو الأمر، أليس كذلك؟ تتمنين لو كنا فتيانًا، لذلك جعلتني فتى».

تمسك بكتفي وتنظر إلى عينيّ مباشرة. أشعر بوجهي يحمر، أفكر في أنني قلت شيئًا ما خطأ جعلها تنظر إليّ بهذا الشكل الغريب.

«كان ذلك خطأ، عبيدة. كان خطأ جسيمًا منا أن فعلنا بك ذلك. أريدك أن تفهمي أنني عرفت هذا الآن. أيًا كانت الأسباب التي اختلقناها، كان ذلك خطأ. ليتك رأيت كم كان أبوك سعيدًا حين ولدت كل واحدة منكن».

لا يمكنني مواصلة النظر إليها. أخفض بصري. ظني أن هذه طريقتها في الاعتذار. لا يغير شيئًا، لكنه يجعلني أشعر بشكل أفضل قليلًا. استيقظت أمس كفتى. اليوم، استيقظت كفتاة تشبه الفتى بشكل ما. أنا إما شخص جديد تمامًا وإما لم أتغير البتة. لا أعرف حقًا.

«أأنتِ جائعة؟»

ما إن تسأل أمي حتى تصدر معدتي قرقرة استغاثة. بالجهد المضني الذي بذله الجميع ليلة أمس، نسيت الطعام تمامًا. تمد أمي يدها إلى الصينية المعدنية إلى جانبها الآخر وتدهن لي قطعة خبز ما زالت دافئة بالزبدة. تغرف ملعقة من السكر البني الخشن من صحن خزفي وترشه على الزبدة. أتناولها منها وأشعر

بيلورات السكر تذوب على لساني. الزبدة مملحة، لكنها لا تؤثر إلا في جعل السكر أكثر حلاوة.

أغمغم بين القضمات قائلة: «شكرًا لكِ».

«أخواتك ما زلن نائمات؟» تعاود تنقية حبات الأرز. بالكاد في الغرفة ضوء كافٍ لترى، تجعلها العتمة تضيق عينيها قليلًا. يرتسم خطًا في جبينها، بين عينيها مباشرة.

«سرعان ما سيستيقظن غالبًا».

«لا أظن ذلك، لقد ظللتن مستيقظات أغلب الليل تتحدثن همسًا. لقد دهشت حين رأيتك مستيقظة في هذا الوقت المبكر.

أتوقف عن المضغ وأنظر إليها من جانب عيني.

«عن ماذا كنتن تتحدثن أيتها الفتيات؟»

أعاود المضغ مجددًا لئلا أجيبها فورًا. شكرًا لحسن السلوك.

«هل ستحتفظن بالأمر سرًا؟»

أجيبها وأنا أرفع كتفَيّ: «ليس شيئًا مهمًا. لا أتذكر حتى عن ماذا كنا نتحدث».

أرى زاويتي فمها ترتفعان قليلًا، بما يكفي فقط لتخبرني أنها تُقدِّر نسياني جيدًا.

أكدت كلامي بقولها: «نعم، أنا متأكدة من أنه ليس شيئًا مهمًا».

أميل إلى حجرها مجددًا، أشعر بقرب خاص منها لأنها غفرت لي كل ما حدث بالأمس. أشعر بلكزة في جانبي مجددًا.

«واه_____ هذه ركلة قوية!»

«إنها كذلك بالفعل».

«بركلات كهذه، لا بد أنه رضيع قوي. فتى بالتأكيد».

تتوقف أمي عن تنقية الأرز وتأخذ نفسًا عميقًا.

«كانت كل واحدة منكن تركل هكذا تمامًا قبل أن تولدن. على الأقل بهذه القوة، إن لم يكن أقوى. أنتِ دونًا عن الجميع يجب ألا تفترضي أن الفتاة لا يمكنها الركل بقوة».

أبتسم ابتسامة واسعة، تكشف أسناني وكل شيء. ربما كانت أختًا رضيعة في الداخل، وربما ركلتني لأنني أستهين بها.

أسمع ثلاث طرقات بطيئة وألاحظ توقف الشخير. إنه أبي. إنه يقف (ي ق ف!) في الطرقة ويمد رأسه نحو غرفة جميع الأغراض. يريح وزنه على العصا ويحاول تسوية شعره بأصابعه. لا يفلح.

«صباح الخير يا أبي». أقف وأسير نحوه ببطء. ما زلت فرحة بقدر ما كنت ليلة أمس، لكنني أخشى التحدث عن التبطين. يجب أن أعرف حالته المزاجية هذا الصباح. فلا توجد علامات ولا ألوان عليه تنبئ بحالته، أيضًا.

«صباح الخير يا عبيدة»، يقول ببطء. يظل ممسكًا بالعصا بيد واحدة ويمد الأخرى لي. يجذبني بذراعه نحوه، ويقبل جبيني. أريد أن أقول شيئًا ما لكنني متأكدة من أنني لو حاولت فسأبكي.. لا أعرف لماذا تحديدًا، لكن صدري كفقاعة على وشك أن تنفجر.

«لقد استيقظت مبكرًا». تقول أمي لأبي.

يجيبها: «أظن أن ضجة الأمس ما زالت تؤثر فيّ». أضغط أذني في صدره ويمكنني الشعور باهتزاز كلماته.

«أنا آسفة حقًا لأنني أقلقتك. وأنك اضطررت إلى الذهاب للبحث عني». صوتي زقزقة.

«كان ذلك سيئًا_____ يجب ألا تفعلي هذا مرة أخرى أبدًا أبدًا». صوته عميق ودافئ. تقلص غضب الأمس إلى تحذير صارم. يمكنني التنفس بسهولة قليلًا.

«أعرف. لن أفعل ذلك مجددًا أبدًا».

«هل صعدت الجبل إلى الشلال حقًا؟»

أومئ برأسي ببطء.

يُطلق أنينًا هادئًا.

«تخيلي ما كان من الممكن أن يحدث لكِ. لهذا كنتِ تسأليني عن الشلال؟ لو كنت أعرف ماذا كنت تخططين، لم أكن لـ.... لكن كيف وجدتِ الماء؟»

«أنت أخبرتني كيف أجده، أبي العزيز. ذهبت إلى رأس الجمل. كان كل شيء كما قلت تمامًا. وجدت الأذن، ذهبت خلفها، وتتبعت صوت الماء».

«إنها مسافة طويلة جدًا إلى هناك. وليس جبلًا سهلًا لتسلقه. يوجد درب بالكاد، لكنه صخري. أنتِ محظوظة أن لم يلدغك ثعبان أو.... أذهبتِ وحدك حقًا؟»

«نعم».

يسود الصمت لدقيقة وثلاثتنا نتخيل كيف كان من الممكن أن يسير الأمر بشكل سيئ. تخيُّل هذا ليس صعبًا. أتذكر الكائنات التي رأيتها في طريقي فحسب. أشعر بالدغدغة على قدمي تقريبًا حتى وأنا أقف مع أبي.

«ارتدي سترة يا عبيدة. لم تُدفئ الشمس السماء بعد، والجو بارد قليلًا بالخارج». توجد سترة ثقيلة خضراء على الكرسي الخشبي في ركن الغرفة. أزلق ذراعًا فيها، ثم الأخرى.

«أتريدني أن أحضر لك شيئًا من الخارج أبي العزيز؟»

«نعم، يا بنيتي». شيء رائع أن أسمع أبي يدعوني بنيتي. مقارنة بالابنة التي كانت في مشكلات معقدة بالأمس، أشعر اليوم بحب شديد. «نحن بحاجة إلى ماء من البئر، وأظن أن نسيم الصباح سيفيدنا نحن الاثنين. ماذا عن جولة مع أبيكِ؟»

لو كان قد طلب مني ذلك بالأمس، لخرجت من الباب قبل أن ينهي كلامه. لكن ذلك كان بالأمس، حين كنت مختلفة. أنظر إلى نفسي وأرى فستانًا يبدو كأنه على الجسد الخطأ. كبرت عليه وأنا فتى، لكنني أعرف أن إخبار أمي بهذا لن يجعلها تعيد لي ملابس الفتية.

«لكن، أبي، ماذا لو كان ثمة أناس في الخارج؟ أبدو غريبة جدًّا بهذا الفستان والشعر القصير. ماذا سيظن الناس؟»

«من منا أغرب من الآخر في رأيك؟ فتاة بشعر قصير أم شبح يسير بعصا؟ أؤكد لكِ، لن يراك سوى مَن يمكنه رؤية طفلة ساحرة استطاعت أن تخرج روحًا بساق واحدة للتمشية».

الفصل الثاني والثلاثون

تحت سماء مخططة باللون البنفسجي والذهبي، سرت أنا وأبي. انعطفنا خارج شارعنا. أتذكر مسابقة رحيم من أحد الأركان إلى الآخر، وأنا خلف سحب الغبار التي يثيرها حذاؤه البلاستيكي. نمر بدار عمي في الشارع، وأسمع من خلف الجدار، أبناء عمي يستيقظون. بصياح يجعل الديك يخجل من نفسه، يعلن ابن عمي أن أخاه ظل نائمًا لوقت طويل جدًا. إنه الصباح، يصيح، والفتيات فقط من ينمن حتى هذا الوقت.

أنظر أنا وأبي أحدنا إلى الآخر ونبتسم بتواطؤ. أرى أبي خارج البيت، ويقف مستقيمًا، أرى كم هو نحيل. وجهه منهك أسفل لحيته النابتة. شعيرات ذقنه فضية. لا أتذكر رؤية هذا من قبل. ملابسه واسعة على جسده النحيل. أتذكر ما قاله عن كونه شبحًا يسير بعصا. أفكر رغمًا عني في دقة وصفه.

أراقبه بجانب عيني وهو يسير بالعصا. أتذكر يوم اصطحبني إلى الطبيب ليفحصني. أتذكر سيرنا معًا إلى الصيدلية. كان عليه أن يبطئ خطوه ليمكنني اللحاق به. اليوم خطواته قصيرة وعليّ أن أبطئ سيري لئلا أتقدمه.

يتأرجح جسده قليلًا مع كل خطوة. لا يبدو مرتاحًا تمامًا. يتوقف كل عدة ياردات ويعدل ساقه المبتورة أو قبضته على العصا. أنتظره أن يخبرني أن العصا ليست جيدة جدًا أو أنه مرهق جدًا ويريد العودة إلى البيت.

لكنـه لا يقـول شيئًا مـن هـذا. يأخـذ نفسًـا عميقًا فحسـب ويواصل السير.

نسـير إلـى مـا بعـد أشـجار الرمـان الأربعـة ذات الأغصـان العاريـة الحزينـة ونتوقـف عنـد البئـر. أحمـل حاويـة بلاسـتيكية سـعة ثلاثـة جالونـات وقمعًـا. البئـر عنـق معدنـي يبـرز مـن مربـع أسـمنتي. يرتفـع المربـع لنصـف طولـي ويعمـل كقاعـدة صلبـة. يلمـع معـدن المضخـة ويبـدو خـارج سـياقه فـي مـكان مثـل قريتنـا. يتفـرع مـن العنـق رافعـة طويلـة من أحـد الطرفيـن، وصنبـور قصيـر وسـميك عنـد الطـرف الآخـر.

أضـع القمـع فـي فـم الحاويـة البلاسـتيكية، وأضـع الحاويـة أسـفل الصنبـور مباشـرة. يراقبنـي أبـي دون أن يقـول شـيئًا. يمسـح جبينـه بمنديل قماشـي ويلتقـط أنفاسـه. أسـتاء حيـن أفكـر فـي معاناتـه وهـو يجـوب الشـوارع مسـاء أمـس بحثًـا عنـي.

«سـأضخ أنـا»، يقـول. يسـير خطـوات ـــ قفـزات قليلـة إلـى المقبض الطويـل البـارز من الأرض.

يوجـد كرسـي أخضـر بلاسـتيكي بجـوار البئـر. يبـدو أبـي مرهقًـا، ومـا زال علينـا العـودة إلـى البيـت.

«لمـاذا لا تجلـس يـا أبـي؟ سـأضخ أنـا المـاء. إنهـا مهمتـي المعتـادة فـي جميـع الأحـوال».

«لا»، يقـول وهـو يهـز رأسـه. ينظـر حولـه سـريعًا ليـرى إن كان أحـد مـن الجيـران فـي الأنحـاء يـراه. لا يوجـد أحـد. يتنحنـح ويأخـذ نفسًـا عميقًـا. «يمكننـي فعـل هـذا».

مضـت شـهور منـذ أن رأيتـه يفعـل أي شـيء أكثـر مـن العـرج مـن غرفـة إلـى أخـرى. لا أصـدق أن عصاتـي هـي التـي جعلتـه يسـير كل هـذه المسـافة.

يضع يده على الرافعة ويوازن نفسه. يبدأ دفع الرافعة إلى الأسفل، لكنه يميل وهو يدفع نحو الأرض. أسرع إليه، أخشى أن يسقط.

«لا!» يصيح حين يراني أقترب منه. ليست صيحة غضب، بل جزع أكثر. «لا أريد مساعدة يا ابنتي».

«يمكنني الضخ يا أبي».

«أعرف أنه يمكنك، أعرف أنه *يمكنك*».

أفهم حينها. أفهم أنه في حاجة إلى إثبات أنه يمكنه دون مساعدة ابنته. أصمت تمامًا وأعود إلى الصنبور.

بشهقة، يدفع المضخة إلى الأسفل. يبذل جسده كله جهدًا. يدع العصا تسقط على الأرض ويمسك الرافعة بكلتا يديه. تبرز عروق عنقه مع كل دفعة. أسمع قرقرة في الماسورة وأرى الماء يخرج من فم الصنبور.

«إنه قادم، يا أبي! إنه قادم!»

أصيح كأن الصنبور سيصب ذهبًا وليس ماء. لكنه ليس مجرد ماء. إنه أكثر من هذا بكثير، ما تثبته هذه الابتسامة الواسعة التي ارتسمت على وجه أبي الضارب للحمرة.

حين تمتلئ الحاوية، نقرر أن نرتاح. يُلقي أبي بنفسه على الكرسي البلاستيكي. أقعد على القاعدة الأسمنتية. تتدلى قدماي أعلى الأرض ببوصات قليلة فحسب.

«عبيدة، أتتذكرين يوم كنا في السوق؟ يوم فقدت ساقي؟»

ذلك اليوم الذي لم نتحدث عنه قط.

أشعر بانقباض في معدتي كلما ذكر هذا اليوم. كيف لي أن أنساه وقد بدأ الأمر كله بسبب زجاجة دواء؟ لا يمكنني النظر إلى ساق أبي دون أن أسمع الصراخ، وأشم رائحة العالم يحترق وأرى أبي ممزقًا إربًا. إنه أسوأ وأقبح يوم شهدته في حياتي، ولا أظن أنه سينمحي من ذهني ولو قليلًا.. لكنني لا أقول هذا لأبي.

«أتذكر».

السماء الآن ذهبية أكثر منها بنفسجية. أسمع نباح كلب من بعيد. العالم يستيقظ.

«كان يومًا مريعًا. لشد ما أتمنى أن يمكنني العودة وتغيير أشياء ـــــ لو كنا قد غادرنا البيت قبل موعدنا بنصف ساعة أو ذهبنا إلى الصيدلية في الناحية الأخرى من السوق. لكن لا يمكن تغيير أي شيء من هذا، ولا أحد ملوم سوى مَن فجروا تلك السيارة هناك».

حلقي سميك وساخن. أحدق في الأرض عند قدمي لأنني لا أعرف ماذا سيحدث لو رفعت بصري. مع ذلك يشعر شيء ما بداخلي بتحرر. لم أدرك، حتى هذه اللحظة، كم كنت أشعر بالسوء لأنني السبب في إصابة أبي. أركز على التنفس ببطء وثبات وهو يواصل كلامه.

«أتذكر الجزء الأول من اليوم فقط. رؤيتك تجلسين على أريكة على الجانب الآخر من الشارع. أتذكر أنني رفعت ذراعي لألوح لكِ وأنكِ لوحتِ لي. أتذكر الفستان الأخضر في الأبيض الذي كنت ترتدينه. أتذكر خصلات شعرك خلف أذنيك، ويسعدني أن ذهني قد توقف عن التسجيل حينها، بعيني على وجهك. بعد

ذلك لا شيء سوى السواد التام حتى اليوم التالي، حين استيقظت ووجدت أمك إلى جانبي، تبكي.

أومئ برأسي. من حسن حظه أنه لا يتذكر أي شيء مما حدث بعد الانفجار. ليتني مثله.

«في الأيام التي تلت الألم في الساق المبتورة وفي كل جسدي، نوبات الحمى، نظرة أمك حين رأتني. لم أستطع التحدث. أردت أن أكون وحدي. طلبت من أمك ألا تأتي بأي واحدة منكن إلى المستشفى».

«قالت لنا إن الأطباء لا يظنونها فكرة جيدة أن نزورك».

«لم يقل الأطباء شيئًا عن الأمر. كانت هذه فكرتي».

أنظر إليه بفضول.

«لماذا فعلت هذا؟»

«لم أستطع النظر إليكن فتياتي. كنت قد ظللت أباكن طوال حياتكن، لكنني حين استيقظت وأدركت ما حدث لي، عرفت أنني لن يمكنني أن أكون أباكن كما أردت. لن يمكنني العمل ولا دفع الإيجار. لن يسعني شراء كتب دراستكن. لن يسعني فعل أي شيء لأي منكن. كان من العسير عليّ جدًا أن أتقبل ذلك».

«لكنك عدت إلى البيت....»

«عدت إلى البيت وساءت الأمور أكثر. لم أستطع الخروج لشراء الجريدة. لم يسعني ارتداء ملابسي حتى دون مساعدة أمك. ما نفع أب لا يمكنه فعل شيء لأبنائه؟»

أبكي رغمًا عني. أنشج وأفرك عيني لأوقف الدموع.

«افتقدتك بشدة يا أبي. أردتك أن تعود للتحدث معنا فحسب. كنا كلنا نفتقدك».

«أنا أيضًا افتقدتكن يا عبيدة. وأريدك أن تعرفي أن الأمور ستختلف. لقد ظل عمك يطلب مني أن أعمل معه، وأظن أنه حان الوقت لذلك. لدي يدان قادرتان ظللت أتجاهلهما لوقت طويل».

نسمع قعقعة معدنية، فأمسح دموعي بسرعة. إنه آغا سمير. يسير نحونا بحاوية سعة خمسة جالونات زرقاء، ووجهه يشع بابتسامة واسعة.

«هل نذهب يا أبي؟» لم يختلط أبي بالجيران البتة، وأتساءل إن كان يفضل تجنب المحادثة معه. يهز رأسه ويظل قاعدًا على الكرسي. يلتقط العصا عن الأرض ويسندها إلى جانب الكرسي.

«صباح الخير»، يُحييه آغا سمير بتلويحة. «حسنًا، حسنًا، لم أتخيل قط أن أرى صديق الدراسة القديم اليوم. أنا سعيد أنني خرجت الآن. أخي، كيف حالك؟»

«سمير؟» يبتسم أبي. «من الجيد رؤيتك يا صاحبي. لقد مر زمن طويل، أليس كذلك؟»

أراقب عيني آغا سمير تسقطان على ساق أبي المبتورة وتظلان هناك بعض الوقت قبل أن يستجمع نفسه ويكف عن التحديق.

«وقت طويل بالتأكيد»، يوافقه آغا سمير. «لكنني أشعر أنه كان بالأمس. أتتذكر المشكلات التي اعتدنا توريط أنفسنا فيها؟ وحين استخدمنا كل صوف والدتك لصنع خيط للطائرة الورقية.

يهز أبي رأسه بضحكة خفيفة.

«كانت قد اشترت ذلك الصوف لصنع سترة لنفسها. رفضت التحدث معي ليومين ـــــــ بسببك!»

«أنا؟ أنت من تسللت بالصوف إلى الخارج!»

«نعم، لكنني أخبرتها أنني لم ألمسه. كانت ستصدقني لولا تلعثمك فجأة باعتذار».

لا أتخيل أبي يكذب على جدتي.

«لم أستطع منع نفسي». يهتز بطن آغا سمير وهو يضحك بعمق. «كنت أشعر بسوء شديد، قضيت أسابيع عدة بعد ذلك أحاول تعلم شغل الإبرة ليمكنني تعويضها، لكن أفضل ما أمكنني صنعه كان جوربًا بلا كعب!»

أبتسم رغمًا عني. الضحك مُعدٍ أحيانًا كنوبة أنفلونزا سيئة.

ينظر إليّ أبي. أحاول إخفاء ابتسامتي، لكن لمعة عينيه تخبرني أنه لا داعي لذلك.

«لم تتغير في شيء»، يقول أبي وهو يفرك عنقه.

«ولا شيء؟» يسأل وهو يربت على بطنه. «لا أعرف إن كنت محقًا في هذا أم لا، لكنني لست من يجادل صديقًا قديمًا بعد هذا الغياب الطويل. وأنت، تبدو.... تبدو بخير».

يتململ آغا سمير وينظر بعيدًا وهو يقول هذا.

«أنت ما زلت فاشلًا في الكذب»، يقول أبي بجدية، وبنبرة مستفزة قليلًا ليخبر آغا سمير أنه يغفر له كذبه.

يفرك آغا سمير جبينه ويرفع كتفيه.

«إنه عيبي القاتل»، يعترف بابتسامة خجلى.

تنتقل عيناه إليّ، بشعري الصبياني المثير للفضول وفستاني. أنا متأكدة من أنه يراني غريبة ـــــــ كأنني ألعب لعبة تنكر غريبة. أنظر إلى الأرض وأتمنى لو يمكنني الطرقعة بأصابعي فأظهر بملابس فتى. أو حتى يطول شعري كفتاة فورًا.

لا بد أن أبي لاحظ سخونة وجهي. يمسك بالعصا ويدفع نفسه لينهض. يسرع آغا سمير نحوه، كما فعلت منذ دقائق، لكن أبي يوقفه برفع يده. فيومئ آغا سمير برأسه متفهمًا.

«لدي المساعدة التي أحتاج إليها هنا»، يقول ببطء وثقة. يرفع العصا عدة بوصات ويشير إليه بعينيه. «أترى هذه العصا؟ هذا ما أعادني من الموت، لا شيء أقل سحرًا».

«إنها جميلة»، يقول آغا سمير. «لا بد أن أخاك من صنعها لك».

«لا»، يقول أبي بعينيه مثبتتين على آغا سمير. أقف بجانبه وأشعر بأصابعه على كتفي. «أخي رجل طيب، لكن هذه العصا السحرية ليست من صنعه. بل صنعتها ابنتي. إنها ابنة مميزة جدًا، عبيدتي. إنها معجزتي».

الفصل الثالث والثلاثون

مع كل خطوة، تزداد ضربات قلبي قوة. أتذكر توتري وأنا في طريقي إلى المدرسة أول يوم لي كباشابوس. فيمَ كنت أفكر؟ لا شيء يقارن بما سيكون عليه اليوم.

طلبت من والديّ أن يدعاني أمكث في البيت عدة أيام لكنهما رفضا.

«ستكونين بخير»، تخبرني مينا. أشعر بعينيها عليّ حتى وأنا أحدق في الأرض. أراقب قدمي الفتاة خاصتي تقطعان الطريق، تجول أفكار غريبة في رأسي. إن رأى أحد ما أصابع قدميّ هل سيظنني فتى؟ ماذا عن يدي أو أذني؟ أعرف أن بعض أجزاء جسدي لفتاة بالتأكيد (ظللت أتفقدها بشكل متكرر حقًّا لأرى إن كان قد تغير أي شيء بعد رحلتي إلى الشلال)، لكنّ أجزاء أخرى مني قد تكون لفتى أو لفتاة. ساقاي، الساقان اللتان تسلقت بهما الشجرة لأنزع الغصن المثالي لعصا أبي، أهما ساقا فتاة أم فتى؟ وماذا عن مخي؟

«لا أصدق أنني أرتدي فستانًا. هذا يوم فظيع».

«يوم فظيع؟» تستنكر عاليا. «وتقلن كلكن أنني أنا التي أبالغ!»

أعرف ما إن أتفوه بهذا أنني عدت شكاءة ومدللة مجددًا، وسأكره نفسي لو كان هذا طبعي. أتذكر الليلة التي سهرنا فيها معا حين قرر أبواي أن يعيداني فتاة. أعض شفتي السفلى وأحاول رفع بصري قليلًا. تلف مينا ذراعها حول كتفيّ.

يسعدني أن يغطي وشاحي شعري الصبياني ــــــــــ أو شعر الفتاة المفقود. لست واثقة من وصفه الآن.

بقدر ما أجر قدمي جرًّا، تطول الطريق من البيت إلى المدرسة. نصل وأرى الفتية يركلون الكرة. عبد الله وأشرف معهم، أميزهما بسهولة لأنهما أطول من الآخرين.

أقترب خطوة من مينا وأحاول الاختفاء في ظلها. نقترب بما يكفي بحيث أتنفس غبار المباراة الصباحية. أضع طرف وشاحي على فمي وأنفي، ليس بسبب الغبار بل لأنني لا أريد أن يلاحظني أحد.

تقف الفتيات خارج مبنى المدرسة في مجموعات متفرقة. تقف معي أختاي حتى يحين وقت اصطفافنا جميعًا للدخول. تنفتح البوابات ويخرج معلم لدق الجرس. تعاود عيناي النظر إلى حذائي فيما تتجمع الفتيات حولنا ليشكلن صفّين. ندخل المبنى وأنا أحاول أن أكون غير ملحوظة.

أتبع عاليا إلى فصلها. نحن قريبتان في السن بما يكفي لنجلس في الفصل نفسه. أشعر بامتنان حقيقي لوجودي معها. تفسح لي مكانًا بجانبها على الأرض، لكن المعلمة تضع يدًا على كتفي قبل أن أجلس.

«وأنتِ من؟»

«صباح الخير يا معلمة. اسمي... عبيدة».

أتساءل متى سيعود إليَّ اسمي. تقف عاليا.

«إنها أختي يا معلمة صاحب. إنها معي».

«آه، نعم». تنظر المعلمة إليّ وتومئ برأسها، كأنها تذكرت شيئًا ما لتوها. «عبيدة. مرحبًا بك في الفصل. أنا متأكدة من أنك ستكونين بخير».

ثم تفعل ما ظللتُ، طوال الليل وطوال الطريق إلى المدرسة هذا الصباح، أخشى أن تفعله.

«يا تلميذات، رحِّبن بعبيدة من فضلكن، إنها أخت عاليا وكانت في فصل آخر في المدرسة حتى أيام قليلة. عبيدة من فضلك قفي ليقابلك الجميع».

أريد أن أقول لها إنني لا أصدق أنها تفعل هذا بي، لكنه في الحقيقة ليس مفاجئًا إطلاقا. هل نسي جميع الكبار ما كان الأمر عليه وهم صغار؟

أشعر بوجهي يتحول من الوردي إلى الأبيض إلى الأحمر. تنقلب معدتي رأسا على عقب وخمسة وعشرون زوجًا من الأعين تنظر إليّ فتى في ملابس فتاة. أقعد على الأرض بأسرع ما يمكنني ويبدأ الهمس.

تبدأ المعلمة درس حساب، وأحاول جاهدة أن أنتبه، لكنني لا أستطيع. أرهف السمع لكل همسة خلفي. أراقب ظهر كل فتاة تتململ في جلستها وأتساءل إن كانت تتحرق لتستدير وتلقي نظرة على المسخ الجالس خلفها.

تنظر إليّ عاليا مرات قليلة لتمنحني ابتسامات جميلة ومطمئنة. تساعدني قليلًا، لكن يبدو أن الهمس يتزايد، ليصير ناتج مسألة الضرب الوحيدة التي يمكنني التركيز فيها.

يحين وقت الاستراحة، أشعر بارتياح. أخطط للاختفاء في ركن بعيد من الفناء. أتذكر اليوم الذي طاردتني فيه رحيمة حين اختبأت في المبنى لأبتعد عنها. أتمنى لو كانت هنا اليوم لنكون فتاتين معًا.

نتدافع عند الباب، أعرف عن تجربة أن التدافع أسوأ بكثير عند الصبيان. نسير أنا وعاليا كتفًا إلى كتف إلى الخارج. أقي بيدي عينيّ من الشمس وأبدأ السير نحوركن من الفناء يتجنبه الجميع.

«أريد أن أبتعد عن الجميع فحسب»، أغمغم. «ليس عليك أن تأتي معي. أعرف أن لديك صاحباتك اللاتي تلعبين معهن عادة».

«سأبقى معكِ»، تقول أختي بصرامة. «لن أتركك وحدك».

«هيه، أنتِ!»

تلتفت عاليا لكنني أمسك بمرفقها.

«دعينا نذهب من هنا فحسب».

«عاليا!»

«ماذا قالت اسمها؟ عبيدة!»

«نعم، هذا هو اسمها، عبيدة! نريد أن نتحدث معكِ».

أشعر بأعينهن على ظهري. أنظر نحوهن سريعًا من أعلى كتفي. أتوقع أن أرى فتاتين أو ثلاثًا. تضطرب معدتي. يوجد على الأقل ست عشرة فتاة بإحصاء سريع.

«عودي إلى هنا! نحن نعرف ماذا كنتِ!»

«إنه ليس سرًّا! نحن جميعًا نعرف!»

أعصر ذراع أختي بقوة حتى تعبس. لولا مظاهرة الفساتين

التي خلفنا لكانت قد ضربتني. أراها مرتبكة مثلي. ماذا يردن مني؟ هل سينزعن عني وشاحي؟ هل سيحطن بي ويقرصنني ليحددن ماذا أكون الآن؟

«أسرعي، عاليا!» أقول وأنا أهرول. توجد شجرات قليلة عند طرف الفناء، ثم طريق صغيرة. أعرف أن اليوم الدراسي لم ينتهِ، لكنني لا أريد سوى أن أركض، أركض، أركض، بأسرع ما يمكنني.

«عبيدة، أين تذهبين؟»

«إلى البيت! أريد أن أذهب إلى البيت فحسب!» حين أسمع صوتي العالي، أدرك أنني أبكي، فيغضبني هذا بشدة. فيمَ سيجدي البكاء الآن؟ هذا ضعف، ولا ينبغي أن أبدو ضعيفة في مواجهة عصبة تلميذات مشاكسات.

أمسح عينيّ بظهر يدي، ما يجعل كل شيء يتغبش أكثر.

الركض بالبنطال سهل، خاصة مع أصحابك يضحكون. الركض بتنورة وأنت تبكي ويلاحقك حشد غاضب ــــــ هذا دون جدوى أيضًا. تتعثر قدمي بصخرة سأظل أكرهها طوال حياتي، فأسقط على الأرض.

حين أرفع بصري، لا أرى الشمس، لكنها لم تغب، بل تحجبها رؤوس ست عشرة تلميذة يقفن أعلاي.

الفصل الرابع والثلاثون

«ابتعدن عني!» أصيح وأنا ألوح بذراعي. أتساءل أين عاليا. شكلت الفتيات دائرة ضيقة حولي وأشعر أنني سقطت في الفخ تمامًا.

«لماذا تركضين؟ نريد أن نتحدث معكِ فحسب».

أنهض واقفة وأدور على عقبي بحثًا عن مخرج. تتسع الدائرة خطوة للخلف فأرى عاليا تقف خلف فتاة أخرى. تبدو كأنها تحاول الوصول إليّ.

«أنا أركض لأنكن تطاردنني! لماذا تطاردنني أنتن؟»

تقول إحداهن، لديها مشبك شعر أحمر تثبت به طرحتها، وهي تضع يديها في خصرها متأففة.

«لم نكن نطاردك. أردنا التحدث معك. أنتِ من بدأتِ الركض.

تتباطأ أنفاسي، وتركز عيناي.

تحدق الفتيات فيّ، لكن ليس بطريقة مرعبة. يبدون كأنهن عثرن على شيء ما خطِر ومثير، كفيلم ممنوع، ويحاولن تحديد كم يمكنهن الاقتراب منه دون أن يخاطرن بالدخول في مشكلات حقيقية.

«لماذا تردن التحدث معي؟»

تميل ذات المشبك الأحمر. يبدو أنها المتحدث الرسمي باسم المجموعة.

«نعرف ماذا كنتِ»، تقول بهدوء.

جالت عيناي سريعًا على المتحلقات حولي. الأعين كلها متسعة وثابتة، كأن أحدهم ضغط زر التوقيف في الفيديو. يراودني شعور غريب في صدري، وأنتظرها أن تواصل كلامها. ما زلت لا أعرف ماذا يردن.

«أخبرينا».

سألتهن بتلعثم: «أخبركن... أخبركن بماذا؟». ثم أضع يدي في خصري أنا أيضًا، لأواجه وقفتها. يجب ألا أبدو هدفًا سهلًا. «لن أخبركن بأي شيء!»

«هيّا، يجب أن تخبرينا!» تتوسل فتاة بعينين بلون الفستق.

تندفع عاليا من بين فتاتين وتقف معي وسط الحلقة.

وصاحت: «ليس لديها شيء لتخبركن به! دعن أختي لشأنها!» ثم خفضت صوتها في تحذير أجش. «وإلا ستندمن ندمًا شديدًا».

تتسع الحلقة قليلًا ويتخذن كلهن نصف خطوة إلى الخلف. يقلقهن أداء عاليا المسرحي لكنه لا يخيفهن تمامًا. يسعدني وجود أختي معي، لكنني لا أريدها أن تدافع عني أيضًا. لا يسعني سوى التفكير في رحيمة وأنا هنا في الفناء. لم تكن لتتأثر بعصبة الفتيات تلك.

«الآن ابتعدن عني! كلكن!» أصيح وألوح بذراعيّ حولي لأبعدهن.

تلتفت دائرة الرؤوس يمينًا ويسارًا، تنظر بعضهن إلى بعض لتحديد رد فعل. يهززن رؤوسهن وتنظر إليّ الفتاة ذات العينين الفستقيتين، مرتبكة.

«لماذا تريدين معاملتنا بسوء هكذا؟ لو كنت باشابوش مثلك، كان سيسعدني أن أتحدث عن الأمر. كنت سأحب إخبار الفتيات

بكل شيء. عاليا، كنت تتساءلين معنا منذ أيام قليلة فقط».

تعقد عاليا حاجبيها. «أهذا ما تردنه من عبيدة؟»

«نعم، كيف كان الأمر؟»

«لا بد أنه كان أفضل كثيرًا، أليس كذلك؟»

«هل كنت تقومين بمهام في البيت؟»

«أظن أن بإمكاني لعب كرة القدم أفضل من هؤلاء الفتية. أحدهم يتعثر دائمًا في الكرة بدلًا من ركلها. إنه بائس».

أفهم، في لحظة، لماذا كن يطاردنني.

أشعر بنفس طويل يغادر جسدي فأدرك أنني كنت أحبسه في صدري.

لا يردن فعل أي شيء بي. بل يردن أن يعرفن كيف كان الأمر وأنا باشابوش، ولا ينبغي أن يفاجئني هذا البتة. كنت قد رأيتهن واقفات فيما يلعب الفتية كرة القدم أو الغورساي. يراقبن من زوايا أعينهن، يحتفظن بمسافة آمنة ولا يجرؤن على اللعب بأنفسهن لأن هناك أشياء لا تفعلها الفتيات فحسب، بل كثير من الأشياء، لا ينبغي أن تفعلها الفتيات، لكن ليس لأنهن لا يردن.

بدأت قائلة: «حين كنت باشابوش، كان أفضل ما حدث في حياتي». ترتخي كتفا عاليا، وتبدو مرتاحة لأنها لم يعد عليها الوقوف معي في مواجهة الحلقة. ما أقوله بعد ذلك لم أخطط له، لكنه يخرج من فمي صادقًا جدًّا لأنه ما أشعر به حقًّا.

«الأمر يشبه حين يكون الشتاء قارسًا، ثم ذات يوم، يأتي الربيع فجأة، ويُدفئ الجو، فلا تضطررن إلى ارتداء معاطف».

تبدو الستة عشر زوجا من الأعين كأنها على وشك القفز

من محاجرها. تأكد لهن كل ما كن يشككن فيه، وأشعر بالغضب يزداد فيهن.

«لم أعد إلى البيت مباشرة بعد المدرسة قط. لم أقم بأي مهام في المنزل. توقع مني الجميع أن يكون صوتي عاليًا، وأن ألطخ بنطالي. لم يعنِ أحد في السوق إلى أين أنا ذاهبة، وكان بإمكاني تسلق الأشجار دون القلق من أن يرى أحد سروالي الداخلي».

بعضهن يشتعلن غضبًا. تبدو أخريات متشككات. وتبدو ذات المشبك الأحمر كأن لديها آلاف الأسئلة الأخرى لي.

«أكنت تريدين البقاء كباشابوش؟»

«بالطبع! لماذا أريد أن أكون فتاة؟ ماذا يمكنكن فعله بهذه... هذه الأثواب؟» أشد تنورتي وأتركها. البناطيل للسيقان، والسيقان تعني الحرية. يعرف أبي هذا كما نعرفه جميعًا.

«كنت تتسلقين الأشجار دون أن ينهرك أحد؟»

أهز رأسي.

«تسلقت واحدة من أطول الأشجار في السوق. حتى إنني ذهبت إلى الجبال ــــ وحدي. أتعرفن، يوجد هناك كثير من الثعابين والعقارب، وقد رأيت بعضها. لقد مرت عقرب على قدمي، لكنها كانت مرعوبة جدًّا لتلدغني. فعلت أشياء كثيرة لا يمكنني إخبار أحد بها لأنها خطِرة جدًّا. أمكنني فعل كل هذا لأنني كنت فتى».

تسري همهمة إثارة في الحلقة من حولي. أحاول ألا أبدو سعيدة لأنني أثرت غيرتهن جميعًا بتجربتي، لكن كيف لي ألا أفرح، حين أفكر في مغامراتي مع رحيمة، ألعابي مع عبد الله

وأشرف، خِداعي لحرس أمير الحرب، والعصا التي صنعتها وجعلت أبي يخرج من البيت؟

تتقدم أصغر الفتيات في الفصل. تقف على مسافة نحو خمس بوصات مني، أقصر مني كثيرًا.

«كنت تفعلين كل ما يفعله الفتية إذن؟» تسأل بتلميح ماكر.

«كل شيء»، أجيبها بثقة. أنطق الكلمة وأرفع حاجبي لزيادة التأثير. أنتظر أن يخيفها غروري، لكنها لا تخاف ـــــ ليس بأدنى قدر.

بل تميل برأسها جانبًا وتسأل، بصوت حلو وسام في الوقت نفسه: «إن كان ذلك صحيح، أيمكنك التبول وأنتِ واقفة؟»

الفصل الخامس والثلاثون

يستغرق الأمر عدة أيام، لكنني أستقر في حياتي كفتاة مجددًا. تختلف الأمور في البيت. لست الابن المدلل في البيت بعد الآن، لكن أبي لم يعد يلزم غرفته طوال الوقت أيضًا. صار يخرج من البيت كل يوم، وعاد اللون إلى خديه. نتناول وجباتنا معًا في غرفة جميع الأغراض. ليست الوجبات الدسمة التي اعتدنا تناولها في كابول، لكن الأمر، بطريقة ما، لا يهم كثيرًا حين أنظر حولي فأجد الابتسامات الهادئة على وجوه أخواتي.

أفكر في هذا وأنا أخرج من الفصل وقت الاستراحة. عاليًا أمامي مباشرة. لم تعد تشعر بضرورة أن تبقى بجواري. منذ ذاك اليوم في الفناء، قل اهتمام التلميذات بي. لا ألومهن. صارت كل الأشياء الرائعة التي فعلتها وأنا فتى تاريخًا ماضيًا. وهن كبيرات بما يكفي لئلا يحلمن بالتحول إلى باشابوش. أظن أن البشر أحيانًا ما يتقبلون أنفسهم فحسب.

هذا ما أحاول فعله. لا أريد أن أنسى مغامراتي وأنا عبيد، لكنني أحاول أن أكون بخير وأنا عبيدة أيضًا. أرتدي قبعة الساحر وأنا نائمة فقط، لكنني أحتفظ بها في حقيبتي وأتحرك بها يوميًا ـــــ جزء من ذلك لأنني أريد ردها إلى رحيمة، في حال ظهرت، وجزء لأنني أتساءل إن كانت ما زالت تجلب لي الحظ الحسن.

ينقسم الفتية على الجانب الآخر من الفناء إلى فريقين. يضع ثلاثة منهم حجارة لتحديد طرفي الملعب. يستعدون للعب

الغورساي. تسري في أصابعي وقدمي دغدغة لمجرد مراقبتي لهم. لا أمانع الانضمام إليهم.

«لا أصدق أنكِ لعبت الغورساي معهم». تقول بيري. الفتاة ذات العينين بلون الفستق.

«أعرف. تبدو صعبة جدًا. كيف يظلون على ساق واحدة هكذا؟ قد أسقط من أول لحظة»، تقول ربيعة، الفتاة ذات المشبك الأحمر. شجاعة وأظن أنها ستكون باشابوش رائعًا. لم أخبرها بهذا، لكنني في الغالب سأفعل، ستعتبره إطراءً.

«إنها في الحقيقة ليست صعبة كما يبدو»، أقول لهما. «كانت صعبة في البداية وكنت أسقط كثيرًا، لكنني بعد عدة مباريات، تمكنت من الأمر».

أدير رأسي بعيدًا لئلا أراقب اللعبة. لا أريد أن تلتقي عيناي عيني عبد الله أو أشرف. لم أتحدث معهما منذ أن عدت إلى المدرسة كعبيدة، ولا أريد ذلك حقًا. سأبدو غريبة كأن ذراعًا ثالثة قد نمت لي مثلًا.

«لكنكِ كنتِ فتى حينها. ربما لهذا أمكنك لعبها»، تقول بيري.

أرخت طرف عيني لتعليقها.

«أتعرفين، أراهنك أن بإمكاني لعبها الآن. بل في الحقيقة، أراهن أن بإمكانكما أنتما الاثنتين لعبها أيضًا».

تبتسم بيري وربيعة ابتسامة واسعة.

«أتظنين هذا؟» تسأل بيري برقة. «لا أعرف إن كانت تلك فكرة جيدة، لأن المعلمين يراقبوننا من نوافذ الفصول وكل الـ...»

«بيري محقة في الغالب»، تقول ربيعة، لكنني ألمح لمعة ثورية في عينيها.

أشعر بشيء ما كهربي يسري فيّ. أعرف كيف أحقق هذا.

«هذا جيد. ربما أمكنني جمع بعض الفتيات الأخريات و______»

«لا، سأجمعهن أنا!» تقول ربيعة فجأة.

«وأنا أيضًا»، تصيح بيري بابتسامة تآمرية.

أضع يدي في خصري وآخذ نفسًا عميقًا.

«حسنًا، هكذا إذن».

نذهب عند شجرة توت لأننا سنحتاج إلى شيء ما يمكنهما الاستناد إليه حتى تتمكّنا من الأمر. أريهما كيف يمسكان أصابع القدم بأصابع اليد المعاكسة وزاوية المعصم التي تحقق أفضل قبضة. تقف بيري وربيعة بجوار الشجرة، وكلما بدأتا القفز تستندان براحتيهما إلى جذع الشجرة السميك لتثبتا نفسيهما. تنجح بيري في الوقوف لعدة ثوانٍ بساق واحدة وذراع واحدة، فأحثها على القفز خطوة أو خطوتين. تفعل، فنهلل أنا وربيعة. تتسع عينا بيري كأنها لا تصدق قدمها. تلتفت لتنظر إلينا فتفقد توازنها تمامًا وتسقط على مؤخرتها، ترتفع تنورتها حولها للحظة كنبتة فطر ملون.

«كان ذلك جيدًا جدًّا!» تصيح ربيعة. «دوري الآن».

تتدبر ربيعة التقدم عدة قفزات، لكنها تترنح كثيرًا جدًّا، يمكن لأي خصم إسقاطها بسهولة.

«لا تنظري إلى الأسفل»، أقول كمدربة. «أبقي عينيك في الاتجاه الذي تريدين التقدم فيه ولا تتوقفي. يجب أن يظل ظهرك مستقيمًا وإلا سيصعب الإمساك بقدمك».

بدأت بيري تركض حول الشجرة لتلحق بربيعة بساق واحدة.

«سأطرحك أرضًا!»

تضحك ربيعة لفكرة أن بيري يمكنها إسقاطها، لكنه ممكن جدًا. بيري موهوبة.

ثم ألاحظ شيئًا ما. للمرة الثانية هذا الأسبوع، أقف وسط حلقة واسعة من فتيات يحملقن، لكنني هذه المرة أشارك الانتباه مع بيري وربيعة. تجمعت زميلاتنا في الفصل حولنا بفضول متوتر. تلمع أعينهن بالثورية الهادئة نفسها، وهذا كل ما أحتاج إليه.

رحيمة، ليتك كنت هنا معنا.

«يمكنكن جميعًا التجربة. إنها ليست صعبة كما تبدو».

«أوه، نعم، إنها كذلك!» تصيح بيري وهي تسقط على عدة فتيات حين تبالغ في القفز. يضحكن ويدفعنها من ظهرها لتنهض. تبتسم لهن قبل أن تتحرك في اتجاه مختلف. «شكرًا!»

يبدأ الأمر بفتاتين. ثم فتاة أخرى. ثم ثلاث فتيات. وقبل أن يمكنني عدهن، يتحول الجانب الخاص بنا من فناء المدرسة إلى ملعب مليء بفتيات يتحركن بساق واحدة. يقفزن، يسقطن ويهلل بعضهن لبعض. نبدو كسمك صغير خرج من الماء، نتقافز في الأنحاء بلا انسجام بشكل غير مألوف إطلاقًا. لكنني أراقبهن، وبعد دقائق قليلة يتخذ القفز إيقاعًا. توجد فتيات واقفات أكثر ممن سقطن. يتحركن في اتجاه محدد ويواجه بعضهن بعضًا. إنهن لاعبات غورساي، مستعدات للمباراة.

تتحرك عيناي من الفتيات إلى الفتيان الذين توقفوا عن لعبهم ليراقبوا ما لم يروه من قبل، بينهم أشرف وعبد الله. لا بد أنهما شعرا بتحديقي فيهما، لأنهما التفتا نحوي ـــــ وقبل أن يمكنني إخفاء وجهي ـــــ التقت أعيننا.

يومئا برأسيهما ويرفعا ذقنيهما نحوي بطريقة تقول إنهما منبهران. أجيب ابتسامتيهما البسيطتين. التواصل بيننا واضح كأنني أقف في الجانب الخاص بهما.

أرى، لأنني أعرفهما جيدًا، أنهما هما الآخران يتمنيان لو كانت رحيمة هنا لترى هذا.

تركض عاليا أمامنا. يرتفع حذاؤها إلى أعلى خلفها، ويتماوج طرف تنورتها بقوة اندفاعها. لو ارتدت بنطالًا، لن يمكننا الإمساك بها ــــ إنها سريعة مثل أي فتى في القرية.

«لا أطيق الانتظار لأراه!» تصيح بصوت عالٍ. يصلنا صياحها مع النسيم. «أأنتِ متأكدة من أننا سنجده؟»

«ليس إن قدتِ أنتِ الطريق»، أغيظها.

ثم أهز رأسي. بدأ الجو يزداد حرًّا بشكل يجعل الركض ليس فكرة رائعة. ستشعر بالظمأ قريبًا، وما زال أمامنا طريق طويلة لسيرها. أنا أعرف.

نيلا ومينا تسيران أمامي.

أستدير لأنظر خلفي إلى أمي. تقف عند البوابة المعدنية بأخي الرضيع بين ذراعيها. يرح رأسه في الفجوة بين عنقها وكتفها، ورفعتْ قميصه القطني ليمتص ظهره بعضًا من ضوء الصباح الباكر. تقول أمي إن ضوء الشمس مفيد له. حتى وإن كان على مسافة ياردات قليلة، أرى عينيه الصغيرتين تنمزان بسبب السطوع، ما سيهدهده للنوم.

يعكس شعره البني الذهبي الشمس. في الأسبوع الذي سبق انضمامه إلينا، كنا نتجادل حول إن كان سيشبه أبي أم أمي. لم يتوقع أحد، حين وُلد، أنه سيكون له عينان بلون الكراميل مثل عيني، وغمازة ذقن مثل غمازة ذقني، وأصابع مدببة مثل أصابعي.

https://t.me/fantazynov

حتى أنفه المنمنم يتثنى حين يتثاءب تمامًا مثل أنفي. حتى أنا دهشت. إنه نسخة مني في هيئة فتى، لذلك لا يسعني سوى أن أحبه أكثر قليلًا من المعتاد.

تلوح لنا أمي مرة أخيرة قبل أن نختفي عن نظرها تمامًا. تعود إلى البيت، حيث ستقضي بقية النهار في إعداد وجبة دسمة. تعرف أننا سنعود جائعين. يسير أبي بجانبي. بعصاه إلى جانبه، كعهده دائمًا، صار التبطين باليًا حقًا، لكنني فخورة بهذا. إنه بالٍ لأنه يستخدمه كثيرًا جدًا. لدي أفكار عن كيفية عمل حشوة أفضل بدلًا من هذا قريبًا.

«تذكرن، راقبن خطواتكن. توجد عقارب حولنا ــــــــــــــ»

«وثعابين»، أضيف.

ينظر إليّ أبي بحاجبين مرفوعين. «كلما نصحتِنا، أرتعش من التفكير في فعلك هذا وحدك».

أنظر في الأرض لأخفي ابتسامتي. شيء رائع حقًا أنني ذهبت في هذه الرحلة من قبل وأنني كنت وحدي تمامًا.

تحمل نيلا حقيبة بها طعامًا قليلًا. جمعتها هذا الصباح لأنها توقعت أنني وعاليا سنسأل عن شيء ما لنأكله سريعًا. إنها مستعدة دائمًا لأي شيء، أفكر وأنا أنظر إلى ظهرها. وهي قوية بما يكفي بحيث يمكنها، إن أرادت، حملي أو حمل عاليا. أراقب خطوها الثابت، لا يسعني التفكير في سوى أنها ستكون باشابوش رائعًا.

كانت تلك الرحلة فكرة مينا. حين اقترحتْها هزت أمي رأسها ورفضت فورًا. لا ألومها. أنا متأكدة من أنها كانت تفكر في

حالي حين عدت إلى البيت بعد تسلق الجبال. من الصعب نسيان الخدوش التي كانت على يدي، والبثور في قدمي، وملابسي المبللة بمياه الجبل. لكن مينا لا تترك شيئًا، وما إن خطرت لها تلك الفكرة لم تكن لتتركها تذهب من رأسها إلى أن ترى الشلال بعينيها.

حين أفكر في الأمر، أجد مينا ستكون باشابوش رائعًا هي الأخرى.

«أمي؟»

«نعم عبيدة؟»

«أنا سعيدة حقًا أنك أحضرتنا إلى هنا». تحمل عبارتي هذه الكثير جدًا. ها هنا ما لا أقوله لأن حلقي سينسد بالعواطف إن حاولت: *أنا فخورة بجهدك الذي بذلته لتكون أقوى. وسعيدة جدًا أنك صرت معنا كأبينا مجددًا. وأعرف أنك لا تتمنين أن نكون أي شيء سوى فتياتك.* يطرف أبي بعينيه مرتين ويزم شفتيه، ما يؤكد لي أنه فهم كل ما لم أقله.

«أنا أيضًا سعيد حقًا أنني تمكنت من ذلك. لا أصدق أنني أصطحب فتياتي إلى مكان اعتدت الذهاب إليه وأنا فتى. تغير كل شيء كثيرًا جدًا منذ أن تركنا كابول».

أومئ برأسي أوافقه. يبدو كأن زمنًا طويلًا جدًا قد مر منذ أن كان لأبي ساقان، مع أنه لم يمضِ سوى عام واحد فقط. حدث الكثير جدًا في هذا الوقت. تحولتُ من عبيدة إلى عبيد ثم إلى عبيدة مرة أخرى. لم يكن لدي أصدقاء، ثم كان لدي رحيم، والآن لدي ذكرياتي عن رحيمة وصديقات جديدات كثيرات مثل بيري

وربيعة. لم أعد الفتاة المدللة للبيت، لكن هذا يسعدني. أحب أن أكون إحدى الأخوات، وأنا متأكدة تمامًا أن أخي الصغير سيكون بين أيدٍ أمينة ونحن جميعًا نعتني به. لدينا الكثير لنعلمه له. وهذا العام، أدركت أن لي طبعًا أيضًا ـــــ أنا الفتاة التي يمكنها فعل أشياء رائعة حقًا.

نحن في السهل الآن، أرى الجبال أمامنا. أرى الجمل بسناميه الجبليين ورأسه يلوح في الأفق.

أخبروني أن أسطورة المرور من تحت قوس قزح ليست سوى خرافات. مع ذلك، يظل جزء صغير مني يفكر أنني، مذ تسلقت تلك الصخور وخاطرت بحياتي ووقفت تحت مياه الشلال، قد تغير فيّ شيء ما.

تأتي رياح خفيفة من الشرق، تُثقل خطونا. تسرع أمام أسرتي وأمامي، كأنها تقود طريقنا. من بعيد، أكاد أراها تصعد الجبل بسرعة، تدور حول عنق الجمل، وتنحدر إلى الأسفل إلى رقعة العشب الطويل التي أتخيلها أهداب الجمل الجميلة. ينحني العشب لها ثم يعاود الوقوف، تدغدغه الريح، فلا يسعني سوى الضحك لغمزة عين الجمل الجبلي، كأنني أنا وهو سنظل دائمًا نكتم سرًا بيننا.

رباني والدان لم يقصّا جناحيّ قط. علماني بالمثل الأعلى أن الفتيات والفتيان على قدم المساواة فيما يمكنهما تحقيقه. نشأت وسط عائلة أكبر تقدر الإنجازات وتشجع الطموحات التي قد لا يسمح بها آخرون إلا للفتيان. لذلك، سأظل ممتنة لهم إلى الأبد، لأنني كنت سأغدو شخصًا مختلفًا لو لم يعلموني ألا أتوقع شيئًا أقل من نفسي.

مع أن أحداث هذه القصة تدور في أفغانستان، لكنني آمل أن تشجع على الحوار والتأمل في معنى الجندر في كل مكان. وقد اخترت أفغانستان لأنها موطن عائلتي، وكذلك لأن سمعتها في مسألة المساواة بين الجنسين ليست أفضل شيء.

لم يكن الأمر كذلك دائمًا، لكن سنوات الحرب وصعود أنظمة معادية للنساء مثل طالبان حبست النساء في بيوتهن واستبعدتهن إلى الظل. من تلك الهاوية بعد ذلك الانهيار الحتمي، لم يكن من سبيل آخر سوى الصعود. ببعض الجهد الشاق والسريع، للحاق بما فات، تتقدم النساء والفتيات الأفغانيات بثبات نحو ضوء الشمس. من هن النساء الأفغانيات اليوم؟ إنهن سياسيات قويات، طيارات محلقات، طالبات نجيبات، ومذيعات وقورات، وفنانات جريئات، ونساء أعمال بارعات، وصحفيات محققات، وأكثر من ذلك بكثير.

وماذا عن الباشابوش؟

ظلت عادة الباشابوش المستمرة منذ القدم في أفغانستان مثار فضول الكثيرين، لكنها أيضًا طريقة مميزة لاكتشاف معنى

أن تكـون فتـاة. تحـول الأسـر التـي ليـس لديهـا ابـن إحـدى فتياتهـا الصغيـرات لسـد هـذا الفـراغ بتحـول ظاهـري طفيـف كإلباسـها ملابـس فتـى وقـص شـعرها. وقبـل أن تبلـغ الباشـابوش (الفتـاة التـي ترتـدي ملابـس فتـى) تعـود مـرة أخـرى إلـى حياتهـا كفتـاة، لتحظـى بحريـة وامتيـازات أقـل بكثيـر.

توجـد عـادة الباشـابوش لأن للفتيـان مكانـة ليسـت للفتيـات. لأن ثمـة مفهومًـا خاطئًـا بـأن الفتيـان يمكنهـم فعـل أشـياء لا يمكـن للفتيـات فعلهـا. هـل توجـد هـذه الأفـكار فـي أفغانسـتان فقـط؟ لسـوء الحـظ، لا.

توجـد طـرق كثيـرة للحـطّ مـن شـأن الفتيـات. قـد تكـون صارخـة مثـل منعهـن مـن الذهـاب إلـى المدرسـة أو تزويجهـن فـي حيـن يجـب تعليمهـن القـراءة. وقـد تكـون مسـتترة مثـل التهكـم مـن أحـد مـا «يرمـي الكـرة كفتـاة» أو قبـول مقاطعـة صـوت الفتـاة بصـوت فتـى.

الباشـابوش وسـيلة قويـة للتعلـم. بتغييـر بسـيط فـي الهيئـة، تتغيـر إمكاناتهـا. تـزداد ثقتهـا بنفسـها. تتضاعـف قيمتهـا. ومـع ذلـك، تظـل الشـخص نفسـه تحـت القشـرة الضحلـة لملابـس فتـى.

حيـن نتجـاوز النـوع وننظـر إلـى قلـب الطفـل، سـنرى عالمًـا مـن الإمكانـات قـد يأخـذه أو يأخذهـا ويعلـو بهمـا إلـى القمـة. كيـف سـيكون العالـم حيـن نراهـم جميعًـا ينعمـون بـدفء شـمس حانيـة عظيمـة.

شكر وتوطئة

إن كان الأمر يستلزم قبيلة لتربية طفل، فهذا هو القاسم المشترك بين الكتب والأطفال.

شكري لهيلين هيلر لتفكيرها في ضرورة تقديم رحيمة إلى جمهور أصغر سنًا، ومرة أخرى، لترصيعها القصة بجواهر حكمة الرومي. وامتناني لسارة هيلر، لتوجيهها الفطن، ولتوصيلها النص إلى عناية روزماري بروزنان. روزماري، أنتِ وفريقك الهائل أخجلتموني بحماسكم في توصيل قصة عبيدة إلى الجمهور الأهم ــــ الأطفال.

شكرًا لكل أقاربي على الدعم، والثقة، والإلهام، والنقد، والمادة أحيانًا. أمين، ماما، بابا، زوران، زايلا، كيروس وكايرا ــــــــ أنتم دافعي للكتابة.

https://t.me/fantazynov